

أدب الفقه كاهننا عند الخط

دكتور
المعتمد جبر الفقا ريسير
جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالمنصورة

الطبعة الأولى
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وما توفيقى إلا بالله)

مقدمة

لم ينل موضوع « الفكاهة » عند الجاحظ من اهتمام المحدثين مثل ما حظى به غيره من جوانب فجاجه الأدبي والفكري المتنوع ، ولم يتناولوه أحد بالبحث والتحليل كما ينبغي ، وربما كان السبب ذلك راجعاً إلى تصور بعضهم أن ذلك الجانب يدخل في نطاق المزول ، ويندرج في جملة اللغو .

والحقيقة أن الذي يتفرس دجائبات الجاحظ ويتأمل طرائفه وفكاهاته يلمس أنه كان حكيماً في هزله ، كما كان حكيماً في جدّه ، وكان رائداً في فكاهاته كما كان هذا شأنه في معظم القضايا والموضوعات التي عرضها على عقله وعالج الكتابة فيها ؛ فلم تكن فكاهاته عارية عن الهدف أو فارغة من المضمون ، بل كثيراً ما تأتي مصحوبة بالتلميح المادف ، أو التعريض اللاذع ، بما يحملها تأخذ طابع المعالجات الفكرية المحمّولة ، والتي تسمو - في جوهرها - على اللهو الفارغ ، أو البهيم " خيمس " .

فالجاحظ كثيراً ما كان يستخدم الإطار الفكاهي ليوجه نقداته المادفة وسخرياته المرة إلى الأدواء الاجتماعية ، والنقائص الأخلاقية التي يراها فاشية في الناس من جوله ؛ فكان يعالج نكبره لها ، ويصيب نقيصته عليها ، في ذلك القالب الأدبي الرفيع ، الذي رأينا أن نطلق عليه « أدب الفكاهة عند الجاحظ » .

ويعد الجاحظ أسبق الكتاب العرب احتفالاً بالفكاهة ، وحشداً لها في ثنايا مؤلفاته ، وهو صاحب مذهب مشهور في مزج المزول بالجد ، والخروج بقارئه من أدنى المسائل وأشدّها عمقاً وتعميداً إلى أيسر الموضوعات ، وربما استطرد به إلى شيء من النوادر الطريفة ، والفكاهات العذبة . وللجاحظ دفاع طويل

عن هذا الأسلوب في التأليف ، وله احتجاج متكرر لجذوى تلك الطريقة ، واعتذاراته لقرائه بسبب إقصائه للطرائف والفكاهات في أثناء الموضوعات الجادة - كثيرة ومستفيضة .

فلا غرو إذاً أن نعدّ الجاحظ رائداً للأدب الفكاهي عند العرب ، بحسبانه أول من ابتكر هذا الأسلوب المرح ، وأسبق من عنى بمراعاة ميول قرائه ، وتفنن في إمتاعهم ، وإدخال السرور عليهم ، إبقاء على نشاطهم وإبعاداً للملل والسأم عنهم .

حقاً لقد عرف الأدب العربي من العلماء والرواة قبل الجاحظ وفي عصره من عنى بالملح والنوادر وأكثر من رواية الطرائف والفكاهات ، لأن العرب لم يفقدوا روح المرح والميل للفكاهة على امتداد تاريخهم المعروف لنا ، ولكن عناية الجاحظ بالفكاهة واحترافه بعناصرها وإتقانه لصياغة ما يسوقه من الطرائف والملح تفوق ما عرف عن غيره من الرواة . وقصارى ما نريد تقريره هنا هو أن الجاحظ أول من عالج السكتابة في الفكاهة سواء أكان حاكياً لفكاهات وطرائف شاهدها أو سمعها أم كان منشئاً لعمل أدبي في إطار فكاهي .

وحتى تلك الفكاهات التي اقتصم دور الجاحظ فيها على الرواية يبدو في سرده لها بارعاً غاية البراعة ، وذلك لإحكام صياغته لها ، واختيارها ذات مغزى ودلالة ، ويتضح ذلك جلياً عندما نوازن بين الطرائف التي رواها الجاحظ ، وبين روايات غيره من الأدباء لها ، فسلمح بوناً شامعاً في عرض الطرفة وأسلوبها والإعجاب بها من القارىء ، على الرغم من أن مضمونها واحد ، ولكن يمتاز الجاحظ بأنه بشيع في الطرائف التي يرويها روح المرح التي عرف بها ، وأسلوب التهكم والسخرية ، الذي يحمل لفكاهاته مذاقاً خاصاً يميزه عن غيره من السكتاب .

ولقد كان النزوع إلى الزخ والدعابة أحد السمات البارزة في شخصية الجاحظ، وكان - كما يبدو - طبيعة في تكوينه النفسى، فليس الجاحظ ممن يتظاهرون بالبشر وخفة الزوخ، ولم يكن تعلقه بالطرائف والفكاهات من قبيل التظرف المصطنع أو الرياء المتكلف، بل تستطیع أن تؤكد أنه كان يروى الفكاهات ويردها لأنها متوائمة مع طبيعته، ولأنها تشبع ميلاً غريزياً هدية.

وشواهد نزوعه إلى المرح والمعاينة كثيرة، والدلائل على ذلك مستفيضة منها ما حكاه في البخل^(١) في سياق وصفه لبخل أبي محمد الحزامى قال:

«وكان مرة في موضع حشمة، وفي جماعة كثيرة، والقوم سكوت، والمجلس كبير، وهو (يقصد الحزامى) بعيد المكان منى، فأقبل على المكي، فقال - والقوم يسمعون - : يا أبا عثمان من أبخل أصحابنا؟ قلت: أبو الهذيل. قال: ثم من؟ قلت: صاحبنا لا أسميه. قال الحزامى من بعيد: إنما يعنينا».

وفي موضع آخر من البخل^(٢) وفي معرض الحديث عن طرائف محمد بن أبي المؤمل في البخل يورد الجاحظ خبراً عن معاينة اشتراكها مع السدرى من جانب ضد ابن المؤمل من جانب آخر، وشواهد أخرى كثيرة ستأتى في موضعها من هذه الدراسة.

والحق أن فكاهات الجاحظ ترتفع في قيمتها وفي دلالتها عن أن ينظر إليها على أنها مجموعة من الملح الطريفة أو النوادر المضحكة أو الدعابات المسلية، بل لأنها تسمو في كثير من صورها لتغدو قطعاً أدبية شيقة، وصوراً فنية معبرة، تحتشد في جوانبها القيم الموضوعية والتعبيرية، وتنطوى على معارف

(١) ص ٦٤ بتحقيق الدكتور طه الحاجرى ط دار المعارف السادسة.

(٢) ص ١٠٠.

وفوائد علمية وأدبية وتاريخية على قدر كبير من الأهمية ، بالإضافة إلى ما فيها من تصوير دقيق لقطاعات عديدة من المجتمع في عصر الجاحظ وتحليل كثير من نوازع النماذج الإنسانية التي تصفها وتحسكي طرائفها . ومن هذا الإدراك لأهمية الموضوع والافتناع بقيمة رأيت أن النكاهة عند الجاحظ قيمة بأن تبحث وتفحص ، وأن تلقى الأضواء على غلواهرها وسماتها ، وتكشف لقراء العربية خوامصها ومراميها على أساس أنها لون طريف من ألوان الأدب العربي ، سبق الجاحظ إلى حذفه ، وبرع في إخراج طائفة من روائعه لا تزال أمثلة تحتذى ، ومما لم يشار إليها كلاً ذكرت موضوعاتها مثل « البخل » ، و « التبريع والتدوير » وغيرهما ، حتى غدا الجاحظ أستاذ الأدب الفسكاهي ، وفيلسوف التصوير الساخر في أدبنا العربي غير مدافع .

هذا ، ونمة مسألة أود أن ألفت القارئ إليها وهي أنني اجتهدت في تحليل فسكاهات الجاحظ واستنباط خوامصها ومراميها بعيداً عن الأوسكار السابقة ، وكنت أخطئ في بعض الأحيان إلى نقل فقرات من أقاصيصه المرحية أو تصويره الساخر وطرائفه الهادفة للاعتدال على ما أذهب إليه ، وآثرت هذه الطريقة حتى يكون القارئ تصوراً صحيحاً للظاهرة التي ألفت إليها ، أو الحقيقة التي أدله عليها ، بدلاً من أن أحيله على هذا الكتاب أو ذاك من كتب الجاحظ فأكون قد فوت عليه الاستفادة بما أقدمه .

وأرجو أن أكون قد وفقت إلى ما يحل حقائق هذا الموضوع ويضيف للبحث الأدبي ما يمدد عليه بالنفع والفائدة ، وبالله التوفيق .

المؤلف

من الجاحظ (١) ؟ :

وأراني مضطراً إلى أن أعذر للقارئ المعارف بالجاحظ ، الملم بمكانته وموضعه بين أعلام الفكر والأدب ، وذلك بأن أستبجح الخفى أن أعرف به لمن لا يعرفه من عسى أن يقع هذا الكتاب بأيديهم وتطيب لهم قراءته ، وحسب أنها المسألة عاجلة وإشارة موجزة .

الجاحظ هو : أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكفائي ، ولد بالبصرة في حدود سنة ستين ومائة للهجرة ، وتوفي سنة خمس وخمسين ومائتين ، نشأ في أسرة فقيرة ، وكان عليه في صباه أن يتكسب ليعيش فكان يبيع الخبز والسمك بأحد أنهار البصرة ، وكان مع فضائله دميماً قبيح الشكل ، لقب بالجاحظ لمحوظ عينيه ، أي تنوَّهما .

أما ثقافته ومعارفه فكانت كثيرة إذ أنفق سنوات طويلة من حياته التي امتدت قرابة قرن من الزمان في تحصيل الأخبار والعلوم ، وكان أديباً كاتباً راوية ناقداً .

حدث أبو هفان قال : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا اسعوفى قراءته كأنه ما كان ، حتى إنه كان يكثر دكاكين الوراقين ويبيت فيها للظفر . . » (٢) .

(١) من أبرز ما ألف عن الجاحظ في العصر الحديث ما كتبه الأساتذة : طه الحاجري ، وحسن السندوبي ، وأحمد كال زكي ، وحنان الفاخوري ، وشفيق جبري ، و « شارل بلا » ، ومحمد عبد المزمع خفاجي ، ووديمة طه النجم .

(٢) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٧٤ .

اطلع الجاحظ على جانب كبير من معارف اليونان والفرس والهنود ،
وتعرف على علومهم وفلسفاتهم ، واستوعب كثيراً منها ، ومزجها بمعارف
العرب وعلومهم بحيث صارت مؤلفاته أشبه بدوائر معارف في الموضوعات التي
يبحثها ، ومع أنه لم يتخصص في علم من العلوم المعروفة في عصره ، فقد وعى
روحها ووقف على حقائقها ونظاراتها بحيث أمكنه أن يعالج قضاياها بأبرع
مما يعالجها المتخصصون فيها والمتفرون عليها .
اعتنى الجاحظ أفكار المعتزلة ، وتلمذ على أعلامهم كأبي الهذيل العلاف ،
وأبي إسحاق النظام ، ثم صار الجاحظ بعد ذلك قطباً من أقطاب المعتزلة ،
وصاحب فرقة من فرقهم نسبت إليه ففرت بالجاحظية .
أما مؤلفاته فكثيرة ومتنوعة ، وإن كان جلها قد ضاع ولم يصل إلينا
إلا القليل ، وربما أقل القليل ، ومع ذلك فإن في الذي وصل إلينا من كتبه
أصديق داليل على عبقريته ، وقد أحصى له ياقوت الحموي^(١) قرابة ثلاثين ومائة
مؤلف ، وذكر سبط بن الجوزي أنها تبلغ ستين وثلاثمائة مصنف^(٢) .
وأشهر ما بقي له مما هو متداول بين المحدثين كتاب « البيان والتبيين »
في أربعة أجزاء ، وكتاب « الحيوان » في سبعة أجزاء^(٣) ، وكتاب « البخل »
ومجموعة رسائله .

(١) معجم الأدباء ج ١٦ ص ١٠٩

(٢) نقلا عن أدب المعتزلة ص ١٨٤

(٣) وهما هذا الوصف منشوران بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

الفصل الأول

الجاحظ وفلسفة الفكاهة

كرّر الجاحظ القول في مواضع متعددة من كتبه ورسائله حول الضحك والفكاهة ، وأفاض في بسط الأدلة من العقل والمشاهدة على أهمية الضحك للإنسان ، وحاجة النفس والجسم إلى الاسترواح بالهزل ، والتسلي بالمزح ، تخفيفاً لأثقال الجد ، وعوناً للدرء على معاودة النشاط ، والاستعداد لتحمل تكاليف ما يناف به من مسئوليات ، وأكّد الجاحظ على ضرورة ذلك لمن يضطلمون بأنشطة عقلية كالعلماء وأهل البحث والفكر .

ولقد عالج الجاحظ موضوع الفكاهة معالجة جيدة ، وسلك في بحثه لظواهرها وأسسها نفس المنهج الذي انتهجه في معالجة القضايا الفكرية الجادة ، وهو منهج قوامه استعراض الظاهرة موضع البحث من كافة جوانبها ، وعرض مختلف الآراء حولها ثم الخروج بالرأى الذي يختاره ويرجحه .

ونستطيع أن نقرر في اطمئنان أن ما تحدث به الجاحظ عن المزح والفكاهة يمثل ما يصح أن نطلق عليه « فلسفة الفكاهة » في تراثنا العربي ، وهي فلسفة تضع الجاحظ في مصاف كبار المفكرين الذين درسوا ظواهر الفكاهة قديماً وحديثاً .

وبهذه نغني هذا الفصل أن نلتمس أبرز الأفكار التي قررّها الجاحظ في حديثه عن المزح والضحك ، وما تفتوى عليه من إدراك واسع لجوانب

العالم النفسى للانسان ، مع الإشارة إلى توافق بعض هذه الأقوال مع ما قرره الباحثون فى علم النفس الذين تحدّثوا عن « سيكولوجية » الفكاهة والضحك .

حاجة الإنسان إلى الضحك :

يرى الجاحظ أن لا غنى للإنسان عن الضحك ، ويقرر أن المزاج دوراً حيوياً فى إحداث التوافق النفسى الذى لا بد من توافره ليشعر الإنسان بالراحة ، وأن شأن الضحك فى هذا شأن غيره من العوارض السلوكية التى تصاحب الانفعالات المختلفة . يقول فى « التربيع والتدوير » :

« ولوا ستمل الناس الدمانه فى كل حال ، والجد فى كل مقال ، وتركوا التسميح والتسهيل ، وعقدوا فى كل دقيق وجليل ، لكان الشر صراحاً خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم ، ولكن لكل شئ قدر ، ولكل حال شكل . فالضحك موضعه كالبكاء فى موضعه ، والتبسّم فى موضعه كالتقطوب فى موضعه »^(١) .

ويقرب الجاحظ فى هذا القول من « قولتير » الذى يقول :

« لو لم تبق لنا ضحكاتنا لشنق القاس أنفسهم ، فويل للفلاسفة الذين لا يسطون بالضحك تجماعيدهم ؛ لأن العبوس فى نظرى مرض عضال »^(٢) .

(١) رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج ٣ ص ٧٩ .

(٢) نقلاً عن كتاب « سيكولوجية الفكاهة والضحك » للدكتور زكريا إبراهيم

ويعرض الجاحظ في افتتاحية كتاب « البغلاء » ~~لأهمية~~ أهمية فيقول :

« ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك ، وقبيحاً من المضحك ، لما قيل للزهرة والخبرة والحلي والقهر المبني : كآفه يضحك ضحكاً ، وقد قال الله جل ذكره : (وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمان وأحيى) ، فوضع الضحك بمحاء الحياة ، ووضع البكاء بمحاء الموت ، وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ، ولا يمين على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موضعه من سرور النفس عظيماً ، ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب ؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي وبه تطيب نفسه ، وعليه ينبت شجعه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته » ^(١) .

ويتضح من هذا النص أن الجاحظ يفتن لأهمية الضحك ، وأنه من خواص الإنسان وفي أصل طبيعته وأساس تركيبه ، ويستدل بالآية السكرية على أن الضحك قد سبق فيها مقابلاً للحياة ، بحسبانه دليلاً على ارتياح النفس ، وسلامة الجسم ، وإكمال النشاط ، وهذه - بلاريب - أهم الأسس التي بها تتكسب كلمة الحياة مضمونها الصحيح ، كما أن البكاء وضع في الآية بإزاء الموت لأن الباكي - غالباً - يكون مكتئب النفس ، معتل الروح ، ضائق الصدر بالحياة ، مغموراً عنها ، كارهاً لها ، وخاله هذا ضرب من الموت ، لأنه عطل فيه ما به قوام الحياة .

(١) البغلاء - تحقيق الدكتور طه الحاجري ص ٦ .

الاعتدال في الضحك :

والجاحظ وإن كان يولى الضحك أهمية خاصة ، ويقرر ضرورة الأخذ منه بمقدار - فإنه لا يوافق دعاة البطالة ، وأصحاب الهمم الفارغ ، وله في ذلك رأى شديد ، وازن فيه بين الجذ والمزح ، وتقرر أن العاقل ينبغي أن يحد في مواطن الجذ ، ويمزح في أوقات المزح ، وقد عرض الموضوع برمته في رسالة « الترييح والتدوير » وساق حجج أنصار المزح ، وحجج الذين عدلوا بين المزح والجذ ، على طريقة المؤلف في تناول القضايا التي يعرض لها من جوانبها المختلفة ، ثم ساق في أعقاب ذلك رأيه الخاص . يقول :

« وقد ذهب الفلاس في المزاح في مذاهب متضادة ، وسلكوا منه في طرق مختلفة ، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجذ ، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ، وأن الجذ والدم بينهما نصفان . . . فأما الحماسي عن الهزل والمنفصل للمزح فإنه قال : أول ما أذكر من خصال الهزل ، ومن فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال ، وفراغ البال ، وأن الجذ لا يكون إلا من فضل الحاجة ، والمزح لا يكون إلا من فضل الغنى ، وأن الجذ نصب والمزح جسام^(١) ، والجذ مبغضة ، والمزح محبة ، وصاحب الجذ في بلاء ما كان فيه ، وصاحب المزح في رخاء إلى أن يخرج منه .

والجذ مؤلم وربما عرّضك لأشد منه ، والمزح ملذ وربما عرّضك لألذ منه ، فقد شاركه في التعريض للخير والشر ، وبأينه بتعجيل الخير دون الشر . . .

فأما الذي عدل بينهما فإنه زعم أن المزاح في موضعه كالجذ في موضعه . . .

(١) الجمام ، كسحاب : الراحة .

ولكل شيء موضع ، وليس شيء يصلح في كل موضع . وقد قسم الله تعالى الخيرة على المدة ، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة . . . وسبيل المزح والجدة كبيل المنع والبذل ، وعلى ذلك يجري جميع القبيض والبسط .

ثم يخاض الجاحظ إلى بيان رأيه في الجدة والمزح فيقول : « ونحن نمود بالله أن نحلل المزاح في الجملة كالجدة في الجملة ، بل نزع أن بعض المزح خير من بعض الجدة ، وعامة الجدة خير من عامة المزح ، والحق أن ينضح^(١) عن بعض المزح ، ويحتج لجمهور الجدة . . . »

وقد مزح رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . وقال عمر - رضوان الله تعالى عليه - : إنا إذا خلونا كنا كأحدكم . وقد كان عمر غبوساً قطوباً . . .

وبعد فن حرم المزاح وهو شعبة من شعب السهولة ، وفرع من فروع الطلاقة . وقد أنانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ، ولم يأتنا بالانقباض والقسوة ، وأمرنا بإفشاء السلام ، والبشر عند الملاقاة ، وأمرنا بالتواضع والتواضع والتهادي^(٢) .

وهكذا نرى الجاحظ يعالج موضوع المزح معالجة جادة ، ويذهب مذهباً وسطاً في تقدير قيمة المزح والفكاهة ، فليس من الصواب - في رأى الجاحظ - ولا في رأى غيره من العقلاء - أن يشرف الإنسان في المزاح ويفرط في المزح ، لأن ذلك يقا في المروءة ، ويضمف الشخصية ، بل يؤدي إلى إهمال الواجبات ، والتراخي في تحمل التبعات ، وفي ذلك انحراف عن الجادة وبعد عن القصد ، وميل عن الاعتدال ، الذي هو ملاك السلامة ، وسبيل الرشاد .

(١) النضح : الدفاع والذب بالحجة .

(٢) رسائل الجاحظ ج ٣ ص ٩٣ - ٩٧ (باختصار) .

ويتفق الجاحظ في رأيه هذا مع الأديب الأمريكي « هولمز » الذى يقول :
« أنا لا أمت منكم ميلكم إلى الضحك ، ولا أضن عليكم بالكلمة
تضحككم متى قدّرتى الله على ذلك ، فأما أن تطلبوا إلى ألا أقول
إلا ما يضحك وإلى أن أنسكم ألا تفعل شيئاً غير الضحك ، فذلك يخالف سنة
الطبيعة ، وجدير عن هذا شأنه أن يقلب قرداً لتوه وساعته . ولذا كان
من البلية على الكاتب أو الشاعر أن يسترسل فى باب المضحك ، فإنه يعود
الناس بذلك ألا ينتظروا منه إلا ما يضحك ، وألا يعرفوه إلا مراحاً ، فهم
يكون معه ما دام يضحكهم ، فإذا أراد أن يجد وشرع يتطق بالعلم والحكمة
ضحكوا منه وهرثوا به »^(١) .

إمتاع القارئ بالمضحك والفكاهات :

حرص الجاحظ فى كثير من مؤلفاته على إبراز الفوائد والطرائف التى
يتمتع بها قراءه ، ويدخل السرور على نفوسهم ، ويبعث النشاط فى قواهم ،
والملاحظ أنه اهتم بذلك المنهج بخاصة فى « البيان والتبيين » و « الحيوان »
وهما المؤلفان الكبيران اللذان عالج فى كل منهما مسائل أدبية وعلمية
وتاريخية على قدر كبير من الأهمية وعلى مستوى رفيع من التحليل والتعمق
والاستقصاء .

ويدافع الجاحظ عن هذه الطريقة فى مواضع متعددة من كتابيه المشار

(١) مجلة الرسالة ، الممدد ١٨٨ ، ص ٢٢٢ ، عام ١٩٣٧ من مقال للأستاذ محمد
نهمى عبد الطايف .

إليها ، فترام يعرض في بداية كتاب « الحيوان » مقالة الهاتب عليه ، المعتقد
لمسحه ، الذي يخاصمه قائم الجمل .

« ما بال أهل العلم والنظر ، وأصحاب الفكر والمير ، وأرباب الفعل وأهل
البصر بمخارج الليل ، وورثة الأنبياء ، وأنوعان الخلقاء - يكتبون كتب
الظرفاء والملحاء ، وكتب الفراع والخلفاء ، وكتب الملاهي والفكاهات ...
الأنهم لا يحاسبون أنفسهم ، ولا يوازنون ما عليهم ولم ، ولا يخافون تصنع
العلماء ، ولا لأئمة الأرباء .. ومشنة الجلساء ١٢ »^(١) .

ثم يرد الجاحظ على غاصمه بعد أن سرد مضمون اعتراضه يقول :

« وهذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقه وتنبيه ، وأراك قد هبته قبل أن
تقف على حدوده ، وتفكر في فصوله ، وتعبر آخره بأوله ، ومصادره بموارده ،
وقد غلطت فيه بعض ما رأيت في أثنائه من مزج لم تعرف معناه ، ومن بطالة
لم تطلع على غورها ، ولم تدر لم اجتلبت ، ولا لأي علة تسكفت ، وأي شيء
أرينغ^(٢) بها ، ولأي جد احتمل ذلك المزل ، ولأي رياضة تجشمت تلك البطالة ،
ولم تدر أن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد ، وأن البطالة وقار ورزانة
إذا تسكفت لتلك العاقبة »^(٣) .

وفي البخلاء يردد الجاحظ كلاماً قريباً من هذا عن المزح والضحك يقول :
« ... ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي له جمل الضحك ، صار
المزح جدًا والضحك وقاراً »^(٤) .

(١) الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج ١ ، ص ٢٥

(٢) أرينغ : أريد وطلب (بصيغة المبنى للمفعول) .

(٣) المرجع السابق ص ٣٧ (٤) البخلاء ص ٧

(٢ - أدب الفكاهة عند الجاحظ)

ويفيض الجاحظ في الاحتجاج لمزج المزل بالجد ، وجدوى ذلك في إمتاع القارىء ، وتنشيطه ، وإخراجه من باب لباب ، فتراه يمتد فصلا في « البيان والتبيين » يقول في بدايته : « ذكر بقية كلام النواكى والموسوسين والجناة والأغبياء وما ضارع ذلك وشاكله وأحبينا أن لا يكون مجموعاً في مكان واحد لإبقاء على نشاط القارىء والمستمع »^(١).

ويقول في كتاب « الحيوان » : « وإنما أكتب لك من كل باب طرفاً لأن إخراجه من باب لباب أبقى لنشاطك ، ولو كتبه بكامله لكان أكل وأنبل ، ولكن أخاف التطويل ، وأنت جدير بأن تعرف بالجملة التفصيل »^(٢).

واستطرادات الجاحظ هذه لم تكن مقصورة على إبراد الفكاهات والمزاح بل ربما كانت بألوان من الشعر النادر ، والخبر الطريف ، والقصة المسلية وكأنه يطبق فشكرة « هولمز » تطبيقاً عملياً ، حتى لا ينتظر القراء منه سوى الدعاية ، ولا يتوقعوا منه إلا ما يضحك :

ومن الشواهد على ذلك ما جاء في البيان والتبيين^(٣) وفي أثناء تناول الجاحظ لموضوع تمادح العرب بشدة المعارضة ، وظهور الحجة ، والعلو على الخصم استطراداً - وهو يتحدث عن تعظيم العرب شأن إسمان بن عاد الأكبر - فتحدث عن إنجاب البنات ، وكراهية العرب للمرأة التي لا تنجب البنين ، وحكى هذه القصة الطريفة ، قال :

« ولبغض البنات هجر أبو حمزة الضبي خيمة امرأته ، وكان يقيل

(٢) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٥

(١) ج ٤ ، ص ٥

(٣) ج ١ ، ص ١٨٦

ويعتقد جيران له ، حين ولدت امرأته بنتاً ، فرّ يوماً بختائها ، وإذا هي
ترقصها وتقول :

ما لأبي حمزة لا يأتينا : يظل في البيت الذي يليقنا
غضباناً إلا نلد البنينا : نألف ما ذلك في أيدينا
وإعسا نأخذ ما أعطينا : ونحن كالأرض لزارعينا
« نلت ما قد زرعه فينا »

قال : فعدا الشيخ حتى ولج البيت فقتل رأس امرأته وابنتها .

ثم يعلق الجاحظ على هذه الحكاية وما سبقها من استطراد فيقول :

« وهذا الباب يقع في كتاب الإنسان ، وفي فضل ما بين الذكر والأنثى
تماماً ، وليس هذا الباب مما يدخل في باب البيان والتبيين ، ولكن قد يجري
السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارئ الكتاب ، لأن خروجه من
الباب إذا طال لبعض العلم ، كان ذلك أروح على قلبه ، وأزيد في نشاطه
إن شاء الله » (١)

عدوى الضحك .

يشار الجاحظ في كتاب « البخل » إلى أصل من أصل هذا الضحك
وهذا الأصل يتمثل في أن الضحك لا يحدث بصورة كاملة إلا في حالة ، أن
الإنسان لا يتأني له أن يضحك ضحكاً ممعماً حقاً وهو بمفرده . يقول جاحظ
موقفاً طريقاً له مع واحد من بخلائه :

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٨٦ .

« صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلاً ، فلما صرت قرب منزله ،
 كان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي ، سألتني أن أبيت عنده ،
 وقال : أين تذهب في هذا المطر والبرد ، ومنزلي منزلك ، وأنت في ظلمة
 وليس معك نار ، وعندى لباً^(١) لم ير الناس مثله ، وتمر فاهيك به جودة ،
 لا تصلح لإلا له . فقلت معه ، فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لباً وطبق تمر ، فلما
 مددت [يدي] قال : يا أبا عثمان إنه لباً وغلظه^(٢) ، وهو الليل وركوده ،
 ثم ليلة مطر ورطوبة ، وأنت رجل قد طمنت في السن ، ولم تزل تشكو من
 الفالج طرفاً ، وما زال الغليل^(٣) يسرع إليك . . . فإن أكلت اللباً ولم تبالغ ،
 كنت لا آكل ولا تاركاً ، وحرشت طباعك^(٤) ، ثم قطعت الأكل أشهى
 ما كان إليك ، وإن بالغت بقفا في ليلة سوء . . . وإنما قلت هذا الكلام ،
 لكلاً نقول غداً : كان وكان ، والله قد وقعت بين نابي أسد ، لأنى لو لم أجتك
 به ، وقد ذكرته لك ، قلت : بخل به ، وبدا له فيه^(٥) ، وإن جئت به ولم
 أحذر منه ، ولم أذكرك كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق على ولم يفصح ،
 فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً ، فإن شئت فأكله وموتة ، وإن شئت
 فبعض الاحتمال ونوم على سلامة .

يقول الجاحظ : فما ضحكك قط كضحكي تلك الليلة ، ولقد أكلته جميعاً
 فامضه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن ، ولو كان معي من يفهم

-
- (١) اللبأ : أول اللبن عند الولادة .
 (٢) يريد ثقله على المعدة .
 (٣) الغليل : شدة العطش .
 (٤) أى هجعت شهوتك للطعام .
 (٥) أى عرض فيه رأى آخر .

علم ما تكلم به لأنى على الضحك ، أو لقضى على ، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب»^(١)

وهذا الذى تنبه إليه الجاحظ بشأن الضحك من مئات الاسمين قرره الباحثون المحدثون فى تحليلهم لظواهر الضحك ، إذ ذهبوا إلى أنه ظاهرة اجتماعية ، وذلك لأن الضحك بطبيعته فى حاجة إلى من يردد أصداؤه ، وينشر إشعاعاته ، وهذا رأى « برجسون » ، وربما كان أكبر دليل على أن الضحك ظاهرة اجتماعية ، أنه كلما زاد عدد النظارة فى المسرح زادت بالقوى ضحكاتهم واشتد هتافهم وتصفيقهم^(٢) .

وهكذا يتضح لنا أن الجاحظ اهتماماً ملحوظاً بالفكاهة ، وإسهاماً جيداً فى بحث ظواهرها وأصولها ، وإدراكاً واعياً لقيمتها ودورها فى نفس الإنسان وجسمه ، وعدها عاملاً مهماً من عوامل الترفيه والتخفيف من أفتال الحياة ، وأعباء الواجبات المنوطة بالإنسان .

والجاحظ لم يقتصر على هذا الجانب النظرى الذى اصطلاحاً على تسميته « فلسفة الفكاهة » بل سلك مسلكاً عملياً فى مؤلفاته ، فأولى عناية خاصة بهذا الجانب ، وحشد قدراً كبيراً من الطرائف و « النكات » فى أثناء كتاباته الجادة ، بالإضافة إلى إمعانه قراء العربية بطائفة من الكتابات

(١) البخلاء ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك ص ٧٤ - ٧٥ .

الساهرة ، التي تعد من أروع ما يمثل الأدب الفكاهي عند العرب ، بقي لنا منها كتاب « البخل » ورسالة « الترميم والتدوير » .

وقد استبان لنا أيضاً أن علماء النفس في العصر الحديث أكدوا صدق ما ارتآه الجاحظ في ذهابه إلى أن الضحك غريزة وأنه ذو أثر في الجسم والنفس^(١) مثل « مكذوبال » و « برجسون » وغيرها .

(١) الفكاهة في الأدب : للدكتور أحمد الحوفي ، ج ١ ، ص ١٠ .

الفصل الثاني

دلالات الفكاهة عند الجاحظ

تميز أدب الجاحظ - عامة - بالتعبير عن قضايا المجتمع ، وجاءت مؤلفاته تسجيلاً أميناً لأحداث العصر الذي عاشه كاتبها بموانبه المختلفة ، فن أم ما تنقسم به كتاباته أنه « يأخذ بيدك ليطلعك على الحياة الاجتماعية ويحملك تلمسها وتذوقها - على قلة الكتاب الذين يعمنون بهذه الناحية - فإذا قرأته « الكامل » أو « أمالي القالي » أو « عيون الأخبار » لم تحس فيه شيئاً من ذلك . ومن أجل ذلك كانت كتب الجاحظ أغزر مصدر لدارسي الحياة الاجتماعية في عصره »^(١)

وإن نظرة فاحصة في تراث الجاحظ جعلتنا على يقين من أن هذا الرجل كان ناقداً لسكل ما لم يسغه عقله الناضج ، وفكره المستنير ، في شتى المجالات . فقد تعقب العلماء والرواة في عصره وقبل عصره ، ونقد المفسرين ، والمحدثين ، وعلماء اللغة ، ونقد الأطباء والمترجمين ، ونقد الوعاظ والقصاص ، ونقد العامة وسخر من الخرافات التي تمشش في ردوسهم ، وأبدى إشفافه عليهم ورغبته في تقويم عقولهم . ونقد الجاحظ كذلك العادات الاجتماعية والأنماط الأخلاقية الذميمة ، واستصوخ من الظلم الذي يعاني منه المخلصون ، والمهانة التي يتعرض لها ذوو العقول الراشدة والآراء السديدة .

(١) ضعي الإسلام : لأحمد أمين ، ج ١ ، ص ٣٨٨

ومما يدخل في هذا الباب أيضا ما يحكيه الجاحظ عن رواه يقول :

« قال أبو الحسن المدائني : قال سعيد النواء : قدمت المدينة فلقيت على ابن الحسين فقلت : يا ابن رسول الله ، متى يبعث أمير المؤمنين على بن أبي طالب . قال : إذا بعث الناس ، قال : ثم تذاكرنا الجمل فقال : ليمتد كان ممنوعاً فهل ذلك بمشرين سنة — أو كلمة غير هذه — قال : فأبيت حمن بن حسن ، فذكرت له ما قال ، فقال : لوددت والله أنه كان يقاتلهم إلى اليوم ! قال : فخرجت من فوري ذلك إلى علي بن الحسين ، فأخبرته بما قال ، فقال : إنه لقليل الإبقاء على أبيه . قال : وبلغ الخبر المختار^(١) فقال : أ يضرب بين أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لأقتلنه ! فتواريت ما شاء الله ، ثم لم أشعر إلا وأنا بين يديه ، فقال : الحمد لله الذي أمكنني منك ! فقلت : أنت استمكنك مني ؟ أما والله لولا رؤيا رأيتهما ما قدرت على ! قال : وما رأيته ؟ فقلت : رأيته عثمان بن عفان فقلت : أنا عثمان بن عفان ؟ فقال : أنا حباري ، تركت أصحابي حباري ، لا يهود ولا نصارى ! فقال : يا أهل السكونة انظروا إلى ما أرى الله عددكم اثم خلى سبيلي »^(٢).

وهذه القصة المضحكة تبين تعصب المختار وطيشه لتوعدة رجلا بالقتل لجرد أنه كشف النقاب عن وجود رجل من أحفاد الإمام على ينتقد مسلك جده في خوض حرب الجمل ، ومن ناحية أخرى تدل القصة على ذكاء سعيد النواء وحسن حيلته ، إذ أمكنه التخلص من انتقام المختار بأن اختلق له

(١) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي أحد دعاة الشيعة وغلانهم قاد معارك عديدة ضد بني أمية وتزعم جماعة التوابين الذي نهضوا ليثأروا للحسين من قاتليه .

(٢) الحيوان ح ٥ ص ٤٥٠

تلك الرؤيا الملققة ، وجعل خواها انتفاص عثمان بن عفان — رضى الله عنه —
وذلك شيء يرضى الخلفاء ويوافق هواه وهو يأسر به من الشيعة الغلاة .

ونحن فكاهات الجاحظ في بعض الأحيان إلى جانب السياسة ، فترى
في ثناياها تعريضا ببعض الخلفاء أو الولاة ، وانتقادا لسياساتهم ، أو سخريه
منهم وكشفا لجهلهم وغفلتهم .

من هذه الفكاهات ما رواه الجاحظ في « البيان والتبيين »^(١) قال :

« ونظر عثمان بن عفان — رحمه الله — إلى عير مقبلة ، فقال لأبي ذر :
ما كنت تحب أن تحمل هذه ؟ قال أبو ذر : رجلا مثل عمر .
وهذا الجواب من أبي ذر — رضى الله عنه — تعريض لاذع بسياسة
الخليفة عثمان وتلميح إلى حاجة الخلافة إلى رجل حازم مثل عمر بن الخطاب ،
ومشهور أن أبا ذر قد اختلف مع عثمان وانتقده كثيرا حتى اضطر عثمان إلى
أن ينفيه إلى الربذة »^(٢) .

ومما يتصل بهذا الباب ما يرويه الجاحظ عن أبان بن عثمان قال : « قال
عبد الملك — يعني ابن مروان الخليفة الأموي — : لقد كنت أمشي في الزرع
فأتقى الجندب أن أقتله ، وإن الحجاج ليكتب إلي في قتل فتام^(٣) من الناس
فا أحفل بذلك ! »^(٤) .

(١) ج ٢ ص ١٧٧

(٢) انظر في هذا الموضوع كتاب زعماء الإسلام لحسن إبراهيم حسن ص ١٧١

وما بعدها .

(٣) فتام : جماعات كثيرة . لا واحد له من لفظه .

وفي هذا الخبر ما فيه من مفارقة صارخة بين ممالك عبد الملك بن مروان الذي كان يتوقى أن تطلأ قدمه حشرة صغيرة في حين ترد عليه مراراً أخبار بطش الحاج بالمديد من خصوم الدولة فلا يكثر عبد الملك لذلك ، ولا يرى منه بأساً !

ومن الفكاهات ذات الطابع الساخر ، والأسلوب التهكمي الهادف تلك الطرفة التي يرويها الجاحظ بقوله :

« بينا معاوية بن مروان (أخو عبد الملك بن مروان) واقف بدمشق ينتظر عبد الملك على باب طحان ، وحوار له يدور بالرحى وفي هنته جلجل^(١) ، إذ قال للطحان : لم جعلت في عنق هذا الجار هذا الجلجل ؟ قال : ربما أدركتني سامة أو نمسة ، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنه نام فصصت به . قال معاوية : أفرأيت إن قام ثم قال برأسه هكذا وهكذا - وجعل يحرك رأسه يمناً ويسرة - ما يدريك أنت أنه قائم ؟ فقال الطحان : ومن لي بممار يعقل مثلي عقل الأمير ؟ »^(٢)

ولعل الجانب الأكبر من فكاهات الجاحظ يصطبغ بصبغة اجتماعية ، إذ يمالج ويلس مشكلات في صميم الحياة ، بطريق الحكاية والإخبار حيناً ، وبطريق السخرية والتهكم حيناً آخر ، وتكتسب فكاهاته التي من هذا النوع أهمية كبرى : إذ تعد تسجيلاً صادقاً لواقع الاجتماع في عصره ، ومعايشة

(١) الجلجل : الجرس الصغير .

(٢) البيان والبيان ج ٢ ص ٢٦١

لحياة فئات من الناس ، وما يعانونه من مشكلات ، وما تضطرب به معاملاتهم وعلاقاتهم من خقل وخداع وخبث ورياء .

ولنطوف مع هذه الطرائف والنوادر التي يرويها الجاحظ والتي لها دلالة اجتماعية ، ومغزى أخلاقي .

فن الطرائف التي تدل على السخرية من عبدة المال ، وكشف خيلهم وخدعهم التي يستترون وراءها هذا الشعر الذي يرويها الجاحظ عن الملاء بن الجارود يقول فيه :

أظهروا للناس نسكا وطى المنقوش داروا

وله صاموا وصاموا وله حجوا وزاروا

وله قاموا وقالوا وله حلوا وساروا

لو غدا فوق الثريا ولهم ريش لطاروا

وقول الآخر في أكلة مال اليتيم :

شتر ثيابك واستمد لقابل واحكك جيبك للقضاء بنوم

وامش الديب إذا مشيت لحاجة حتى تصيب وديعة ليتيم^(١)

وأحيانا تأتي الطرائف التي يرويها الجاحظ مصورة لسلوك بعض الناس

في معاملاتهم المالية ، وما يتصف به بعضهم من خراب الذمة ، وعدم الالتزام

بأداء ما عليه من ديون ، وطمع بعضهم الآخر في انتهاب أموال الآخرين بشتى

الطرائف والتملات . ومن الطرائف الدالة على ذلك ما تلذ القصة :

(١) الحيوان ج ٣ ص ٤٦٧ .

« أتى رجل عباديا صيرفيا يسئلف منه مائتي درهم ، فقال : وما تصنع بها ؟ قال : أشتري بها حماراً فلعلني أربح فيه عشرين درهما . قال : إذا أنا وهبته لك العشرين ، فما حاجتك إلى المائتين ؟ قال : ما أريد إلا المائتين . فقال : أنت لا تريد أن تردّها عليّ »^(١) .

« وأتى قوم عباديا فقالوا : نحب أن تسلف فلاناً ألف درهم وتؤخره سنة فقال : هاكأن حاجتان ، وسأفرض لكم إحداها ، وإذا فعلت ذلك فقد أنصفت ، أما الدراهم فلا تسهل عليّ ، واسكني أوخره سنتين »^(٢) .

— ٤ —

ولفكاهات الجاحظ أيضاً قيمة تاريخية مهمة ، إذ تستشف منها كثيراً من الحقائق التاريخية ، ونعترف من خلالها على كثير من الأساليب الحضارية التي عرفها الناس في ذلك الزمان ، ويحقق ذلك الجانب بخاصة في كتاب « البهلاء » حيث بطلعنا الجاحظ فيه على قدر كبير من عوائد الناس وأعرافهم ، ويقصّ علينا طائفة من مواضعاتهم وتعارفوا عليه وتناقلوه كحديثه عن محل المروزيين ، وحرص أهل الأبله^(٣) ، ويحكى طرائف مشوقة في هذا الصدد كأن يذكر عن أهل الأبله في تصوير مخيلتهم هذا الخبير يقول :

« ويكون الزائر من أهل البصرة عند الأبله مقيماً مطمئناً ، فإذا جاء المد قالوا : ما رأينا مدّاً ارتفع ارتفاعه . وما أطيّب السير في المدّ ١ والسير في المد إلى البصرة أطيّب من السير في الجزر إلى الأبله ١ فلا يزالون به حتى يرى أن من الرأي أن يفتنهم ذلك المدّ بعينه »^(٤) .

(١) البيان والبيان ج ٤ ص ٥ (٢) الرجوع السابق ص ٦

(٣) بلد بالقرب من البصرة مما يلي شط العرب .

(٤) البهلاء ص ١٢٥

وبما نستفيد من فكاهات الجاحظ التعرف على نوعية الطبقات الاجتماعية في عصره كالتجار وما جمع بعضهم من ثروات كالسيارة ، والأعراب والمكدين ، فقد وصف لنا الجاحظ صوراً من حياة هؤلاء ، والمخ إلى ما كانت تضطرب به علاقاتهم من مترامح ، وما كان يحدث بينهم من احتكاك ، وما يحمله بعضهم للبعض الآخر من حقد وبغضاء ، وما يقنزون به من نعمت وأوصاف ، ومن أمثلة ذلك ما حكاه في الهتلاء - وهو أحفل كعبه بهذه الاشارات - من التنازع بين الملاك والمستأجرين قصة السكندى وساكف داره ، وأيضاً تصويره لحيل المكدين في قصة خالويه المكدي ، ووصفه لحيل المستأكلين أو الطفيليين فيما حكاه عن على الأسوارى وقاسم القار وغيرهما .

- ٥ -

وأخيراً تدل فكاهات الجاحظ - من الناحية الأدبية - على رقي الكتابة الفنية في الأدب العربي ، وبلوغها طور النضج ولاكتمال ، وطواعتها للتعبير عن الأغراض الدقيقة ، وقدرتها على التصوير والوصف ، وأن النثر الأدبي قد غدا في عصر الجاحظ قادراً على تحمل المضامين المتنوعة ، وإظهارها في قوالب تعبيرية جديدة كالصوير الساخر ، والأقصوصة المرحية . هذا إلى أن لفكاهات الجاحظ تأثيرها الذي لا سبيل إلى إنكاره على أدبنا العربي في عصوره المتعاقبة ، كما سنشير إلى ذلك في الفصل الأخير من هذه الدراسة .

الفصل الثالث

موضوعات الفكاهة عند الجاحظ

انتهينا في الفصل السابق إلى أن لفكاهات الجاحظ مضامين هادئة ، قد تلمس قضية سياسية أو اجتماعية أو مذهبية مما يؤكد أنه كان يوجه سهام نقده إلى المظاهر السلبية التي لا تعجبه .

وهذا أنماط من الناس اختارهم الجاحظ موضوعاً لفكاهاته وهم نماذج لأشخاص أو طرائف بأعيانها رأى فيهم الجاحظ بعين الناقد الساخر أنماطاً متردية - سلوكياً أو أخلاقياً أو فكرياً - نجس فيهم بأسلوبه التهمكي تلك الصفات الممينة ، وكشف بتصويره الرائع مخازنهم وخدعهم . وهنا تكمن القيمة الفنية للفكاهة عند الجاحظ بحسبانها أداة للإصلاح . وحافزاً على تخليص المجتمع من عيوبه ونقائصه عن طريق تكثيف الشعور بالازدراء من الموضوع الذي يضحك منه .

والحقيقة أن موضوعات الفكاهة عند الجاحظ كثيرة ومتنوعة ، وإن كنا نستطيع أن نتبين من مجموعها أنه قد أفاض في توجيهه سخرياته إلى النوعيات التالية :

١ - القصاص والوعاظ .

٢ - الأعراب .

٣ - الحق والبله .

٤ - المعلمون .

• — الهؤلاء .

وسنسط القول في كل نوعية منها .

أولاً : القصاص والوعاظ :

كان الجاحظ — كما هو مشهور — علماً من أعلام المعتزلة ، وصاحب فرقة من فرقهم ، والمعتزلة أرباب فصاحة ولسن ، ودهاء بلاغة وجدل ، وكانوا يأخذون أتباعهم بتعلم أساليب الجدل ، ويدلونهم على وسائل البراعة في القول ، والاستجواذ على إجاب السامعين .

وفضلاً عن ذلك فالجاحظ صاحب عقلية ناضجة ، وفكر مستنير ، فلم تسكن تعجبه تخططات بعض الوعاظ والخطباء ، ولا قصصهم التي يستمعون أكثرها من الخيال ، ويتفلقون بعضها الآخر على علاتها دون روية أو انتقاد . كما كانت تستثير سخيرة الجاحظ جهالات بعضهم ، وقلة فهمهم لحقائق الدين ، ويؤكد الجاحظ أن هذه النوعية من الخطباء والوعاظ إذا اعتلوا المنابر بدوا كالجائنين . يقول :

« وهؤلاء الجفنة والأعزاب المحرمون وأصحاب المعجزة ، ومن قبل فقه في الدين إذا خطبوا على المنابر فكأنهم في طباع أرواك الجائنين » (١) .
ثم إن الجاحظ حرص وهو يتحدث عن الخطابة — في البيان والتبيين — بحسناتها مميزة للموتى ، ومفخرة لهم على مدائن الأمم — حرص أن يذكر عيوب الخطباء ، وما يفتري بعضهم من خسر ، وما يفتخرون فيه من أخطاء .

(١) البيان والتبيين . ج ٢ ص ٢٣٦ . والمحرمون من الأعراب هم الذين لم يهذبهم التحضر . من قولهم نافقة محرمة بمعنى لم تحض ولم تذلل .
(٢) أدب السكاهة عند الجاحظ .

ومدار الفكاهات المتعلقة بالخطباء والوعاظ والقصاص على عدة أخطاء كان يتورط فيها بعضهم ، أو تعرض له في أثناء مواجهته للناس ، ولا ريب أن مهمة الواعظ أو من يقصدى لجمهور الناس بصفة عامة - ليست باليسيرة ؛ لأنه يعرض عقله عليهم ، وتكون أقواله وإشاراته ، بل كل حرف ينطقه أو حركة يأتيها - محسوبة عليه ، وبالتالي فالزلة الهينة منه تعظم في أعين الناس .

ويمكننا أن نلخص الأخطاء التي أهم الجاحظ بتكثيفها في : الحصر ، وعدم مراعاة مقتضى المقام ، والجهل .

أما الحصر فقد ساق الجاحظ طرائف ممتعة تتعلق به ، وذلك في معرض تنويهه بأن للخطبة رهبة ، ولها صعداء على ما يحكيه عن السكيت بن زيد .

وهناك طرائف ممتعة ساقها الجاحظ في باب الحصر لأناس اضطروا إلى الخطابة أو قدموا ليخطبوا فأخرج عليهم مقولاً :

— « صعد عدى بن أرطاة على المنبر ، فلما رأى جماعة الناس حصر فقال : الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويستقيم ا » ^(١) .

« وصعد روح بن حاتم المنبر ، فلما رأى قد شغفوا ^(٢) أبصارهم ، وفتحوا أسماعهم نحوه قال : فكسوا رؤوسكم ، وغضوا أبصاركم ، فإن المنبر مركب صعب ، وإذا يسر الله فتح قفل يسر » ^(٣) .

« وصعد آخر فلما استقوى قائماً وقابل بوجهه وجوه الناس وقعت عينه على صلعة رجل فقال : اللهم العن هذه الصلعة ا » ^(٤) .

(١) البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٢) الشغن : أن يرفع طرفه ناظراً إلى الشيء كالمتعجب .

(٣) المرجع السابق والصفحة

(٤) المرجع ص ٢٥١ .

« وقيل لوازع الشكري : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما رأى جمع الناس
قال : لولا أن امرأتى ~~كانت~~ على إتيان الجمعة اليوم ما جئت ، وأنا أشهدكم
أنها منى طالق ثلاثاً ! » (١)

وهناك حقايق يرتكبها بعض الوعاظ عن جهل منهم بأحكام الدين ،
أو عدم استيعاب لدلول ما يقولون ، ومؤلفاء أندح خطباً وأشد بلاء من
سابقهم ؛ لأن الحصر حالة غارضة ، ربما يكون مرجعها أن الذي يصاب بها
لم يحن نفسه على الخطيئة ومواجهة الناس ، وهو لا ذنب له في ذلك ، أما الجهل
والتخبط أو عدم مراعاة مقتضى الحال والمقام فإن اللامة في ذلك تعود على
الواعظ أو الخطيب لتقصيره في معرفة ما ينبغي عليه معرفته والإلتزام به .

وهذه العيوب التي تعترى الخطباء والقصاص والتي سجلها الجاحظ وشعر
منها تكاد تقطابق مع ما يحدث في عصرنا الراهن وبصورة خاصة في حواضر
مصر وقراها من بقعة دون لمسة الخطابة وإرشاد الناس ، وهم أنفسهم في حاجة
ماسة إلى من يرشدهم ، ويقوم أخطاءهم ويصحح ما فسد من عقولهم .
ومعظم الشخصيات التي ظهورها لنا الجاحظ تراهم من الأدعياء الذين يزعمون
لأنفسهم ما ليس لهم ، ويظهرون أمام عامة الناس بالفة والوع ، والدلم
والإحاطة ، فإذا اعترضهم معترض ، أو لقنهم إلى الصواب نفر من أهل العلم ،
أخذتهم العزة بالإثم ، وأصروا على ما زعموه من باطل وربما تخلص بعضهم
بحجة طريفة ، أو احتذر جماهير أفتيح من ذنبهم .

وهذه جملة من طرائفهم وفكاهاتهم التي تصور حقهم ، وتبين عن جهلهم
وإصرار نفر منهم على ما يتورطون فيه من أخطاء :

— « خطب وكيع بن أبي سود بخراسان فقال : إن الله خلق السموات

(١) للرجع السابق والصفحة .

والأرض في ستة أشهر . فقيل له : إنها ستة أيام . فقال لمن لفته إلى الصواب : وأبيك لقد قتلها وإنى لأستقلها ! »^(١) .

« وخطب إلى اليمامة فقال : إن الله لا يقار عباده على المعاصي ، وقد أهلك أمة عظيمة في ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم » فسمى مقوم ناقة الله^(٢) .

« وخطب عدى بن وناد الإيادي فقال : أقول لكم كما قال العبد الصالح : (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) قالوا له : ليس هذا من قول عبد صالح ، إنما هو من قول فرعون قال : ومن قاله فقد أحسن ! »^(٣) .

« وقال ثمامة : سمعت قاصاً بعبادان يقول في دعائه : اللهم ارزقنا الشهادة وجميع المسلمين ! »^(٤) .

ومن نوادر أبي أحمد التمار أنه كان يقول في قصده : « ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم حق الجار ، وقال فيه قولاً أستحي والله من ذكره ! ! »^(٥) .

— « وكان الوليد بن القتماع عاملاً على بعض الشام ، وكان يستنق في كل خطبة وإن كان في أيام الشمرى^(٦) ، فقام إليه شيخ من أهل حمص فقال : أصلح الله الأمير . إذا نفد القطاني^(٧) ! »^(٨) .

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٣٦ (٢) المرجع والصفحة

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٤ (٤) المرجع السابق ص ٣١٧

(٥) الحيوان ج ٣ ص ٢٩٧

(٦) الشمرى : كوكب نير يقال له المرزم يطلع بمسد الجوزاء وطلوعه في عدة

الحر (اللسان) .

(٧) القطاني - كما فسرهما الجاحظ - : الحبوب واحدها قطنية .

(٨) البيان والتبيين ج ٤ ص ١٩ .

ويوجه الجاحظ كثيراً من سخرياته إلى طائفة ممن احترقوا القصص الديني ،
ويتمتع بخطأهم ويروي طرائفهم ، منهم : « أبو كعب القاص » ، و « موسى
كوش » وغيرهما ، وتصور الطرائف المتعلقة بهؤلاء القصص جانباً من الخرافات
والقصص الخيالية التي كانت تروى عنهم وتروج عند أشباههم من العامة والجهلاء .
يقول الجاحظ مصوراً واحداً منهم : « وكان عندنا قاص يقال له موسى كوش ،
فأخذ يوماً في ذكر قصر الدنيا وطول أيام الآخرة ، وتصنيف شأن الدنيا وتعظيم
شأن الآخرة فقال :

إن الذي عاش خمسين سنة لم يعيش شيئاً وعليه فضل^(١) سنتين ! قالوا :
وكيف ذلك ؟ قال : خمساً وعشرين سنة ليل هو لا يعقل قليلاً ولا كثيراً ،
وخمس سنين قائلة ، وعشرين سنة إما أن يكون صبيّاً ، وإما أن يكون
معه سكر الشباب ، فهو لا يعقل ، ولا بد من صبيحة بالفداء^(٢) ، ونعسة بين
المغرب والمشاء ، كالغشي الذي يصيب الإنسان مراراً في دهره ، وغير ذلك
من الآفات ، فإذا حصلنا ذلك . فقد صبح أن الذي عاش خمسين سنة لم يعيش
شيئاً وعليه فضل سنتين^(٣) .

فانظر إلى أي مدى بلغ سخف هذا القاص ، إذ زين له عقله السقيم ومنطقه
المعوج ، أن جعل حياة الشخص الذي عاش خمسين سنة ضائعة هباء ، وذاهبة
سدى ، بين نوم وقيلولة وصباح وشباب . . . ولو صحّ قياسه ، لما قامت للجنس

(١) الفضل : الزيادة ، ومن معانيها أيضاً : البقية ، وهو أنسب هنا . بمعنى أنه -
حسب زعم ذلك القاص - يكون الذي عاش خمسين سنة لم يعيش شيئاً ، وهو بعد
مدين بمائتين ! !

(٢) الصبيحة - بضم الصاد - : نومة الفداء - والفداء : أول النهار .

(٣) البيان والتبيين ج ٤ ص ٢٦ .

البشرى قائمة ، ولا كانت حضارات ، ولا قامت دول ، بل ما كان للتكليف
ولا للعبادة معنى . ولكنه الجهل والاسترسال مع أوهام العقول المريضة ،
وخرافات الأفهام السقيمة .

وهذا قاص آخر يذكره الجاحظ بقوله :

« وكان عندنا قاص أعشى ليس يحفظ من الدنيا إلا حديث جرجيس^(١) ،
فلما بكى واحد من النظارة قال القاص : أنتم من أى شيء تبكون ؟ إنا البلاء
عليها معاشر العلماء ! »^(٢)

ولعله لا يخفى على القارئ الحصيف مغزى ذلك التلميح المتمثل في مقالة
القاص : « أنتم من أى شيء تبكون .. » . إذ توحى عبارته بأنه يود أن يوم
السامعين بأن لديه من أمثال هذه القصص الشيء الكثير ، وأنه هو ونظراؤه
من « العلماء » يتجملون عبء هذه القصص ، التى تقتلهم بكاء وإشفاقاً ، وخشية
وخشوعاً . وقلوبهم — فى حقيقة الأمر — أبعد عن الرحمة ، وأناهى عن أن
تعرف الإشفاق والخشية .

وهناك شخصية أخرى حكى الجاحظ جانباً من نوادرها وطرائقها وهى
شخصية أبى كعب القاص ، وقد صور الجاحظ فى كتابه الحيوان نفاق هذا
الرجل وظهوره للناس بغير حقيقته ، وادعاءه العلم والفقه والورع ، وهو فى حقيقة
أمره صورة مجسمة للجهل والغباء والبهذ عن حوزة الدين .

يقول الجاحظ بعد أن حكى عن أبى كعب هذا حكاية مسفة تأبى أدواقنا
أن نسطرها فى هذا الكتاب ، وستكون لنا إشارة إليها وإلى أمثالها فى موضعها
إن شاء الله — يقول :

(١) قال فى القاموس ، جرجيس : نبي عليه السلام ونمره فى لسان العرب .

(٢) البيان والتبيين ج ٤ ص ١٥ .

« وأبو كعب هذا هو الذي يقص في مسجد عتاب كل أربعاً (يعني أربعاء) فاحتبس عليهم في بعض الأيام وطال انتظارهم له . فبينما هم كذلك إذ جاء رسوله فقال : يقول لكم أبو كعب : انصرفوا فإنني قد أصبحت اليوم مخموراً » (١)

وكان أبو كعب يقول في قصصه : كان اسم الذئب الذي أكل يوسف كذا وكذا ، فقالوا له : إن يوسف لم يأكله الذئب ، قال : فهو اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف » (٢)

ومن طرائف القصص وحماقاتهم ما رواه ابن الجوزي عن الجاحظ قال : « قال الجاحظ : سمعت قاصاً بالسكوفة يقول : والله لو أن يهوديا مات وهو يحب علياً ثم دخل النار ما ضره حرها » (٣)

وقال بعضهم : يا معشر الناس إن الشيطان إذا سُئِلَ على الطعام والشراب لم يقربه ، فكأروا خبر الأبرار المسالحو ولا تسموا ، فيأكل معكم ثم اشربوا الماء وسموا حتى تقتلوه عطشاً . (٤)

ثانياً : طرائف الأعراب :

وهي من أمتع ما سطره الجاحظ ، وأوضحه دلالة على براعته في التصوير ومقدرته على السرد القصصي الأخاذ ، وقد كان الجاحظ ولوعاً بطرائف الأعراب محباً لأحاديثهم ، مفرماً برواية غرائبهم وفكاهاتهم ، يقول في ذلك :

(١) الحيوان ج ٣ ص ٢٥٥ . (٢) الجوزي ط دار الآفاق بيروت ص ١٣٣ .

(٣) أخبار الحقي والمنفلين لابن الجوزي ط دار الآفاق بيروت ص ١٣٣ . (٤) المرجع السابق ص ١٣٣ . (٥) المرجع والمصطنع ص ١٣٣ .

« رأنا أستظرف أمرين استظرفا شديدا ، أحدهما : استماع حديث الأعراب ، والأمر الآخر احتجاج متنازهين في الكلام وهما لا يحسمان منه شيئا ، فلمما يثيران من غريب الطوب ، ما يضحك كل ثكلان وإن تشدد ، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب »^(١)

والأعراب الذين سرر الجاحظ نواذرهم وطرائقهم أهل بدواة وجفاء ، ليس لهم تموس بأساليب الحضارة ، ولا معرفة بتقاليد المدنية ، وهم قوم جل حياتهم بالبادية ، لم يطل اختلاطهم بأهل الحضرة ، وغالبا ما تحدث المواقف المضحكة ، والمفارقات الفكاهية عندما تتصادم تقاليد البادية ومنطقها بتقاليد الحضارة وعوائدها . ولا تزال في بلادنا إلى الآن كثير من الطرائف و« الذكات » التي تدور حول الرجل من أهل الريف أو من أبناء « الصعيد » حينما يقد إلى « مصر » لأول مرة . . .

والمضحك في نواذر الأعراب يدور أحيانا حول ما تنطوى عليه تصرفات بعضهم غفلة وسذاجة ، وأحيانا لما يتصف به بعضهم من خرس وجشع ، وذلك لما تنطبع به حياتهم من جذب وحرمان ، تتأثر به طباعهم ، ويبدو جلليا في سلوكهم كما تدل بعض طرائقهم على مبلغ ما لديهم من تمسك بالصراحة التي تكون في بعض الأحيان صراحة مخجلة ، ولكن سذاجتهم ، وخسونة عيشهم ، تجعل من مثل هذه الأشياء أمورا عادية ، لا يكثرثون لها ، ولا يحفلون بها . . .

ومن طرائقهم التي تدل على ما ألحنا إليه ما يأتي :

— « روى أن أعرابيا اشتد عليه البرد ، فأصاب نارا ، فدنا منها ليصطلي بها وهو يقول : اللهم لا تحرمنيها في الدنيا ولا في الآخرة ! »^(٢)

(١) الحيوان ج ٣ من ٦ . (٢) الحيوان ج ٤ من ٤٨٥ .

« وقيل لأعرابي : ما اسم الحق عندكم ؟ قال : السخين . قال : فإذا برد ؟ قال : لا فدعه يبرد »^(١).

« مات لابن مقرن غلام ، فحفر لهم أعرابي قبره بدرهمين ، وذلك في بعض الطواحين ، فلما أعطوه الدرهمين قال : دعوها حتى يجتمع لي عندكم ثمن ثوب »^(٢).

« وقال أعرابي : اللهم ميتة كميته أبي خارجة ا قالوا : وماميته أبي خارجة ؟ قال : أكل بذجا ، وشرب مشعلا^(٣) ، ونام في الشمس ، فأنعه المنية شبعان ريان دفآن »^(٤).

« ونظر أعرابي إلى قوم يملسون هلال رمضان فقال : أما والله لئن أترتموه لتمسكن منه بذنابي^(٥) عيش أغبر^(٦) ا .

« وخطب رجل امرأة أعرابية فقالت له : سل عني بني فلان ، وبني فلان ، وبني فلان ، فعدت قبائل ، فقال لها : وما علمهم بك ؟ قالت : في كلهم قد فسكت »^(٧).

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٩ .

(٢) البيان والتبيين ج ٤ ص ١١ .

(٣) البذج : من أولاد الضأن خاصة مشعلا : زق ينتبذ فيه .

(٤) الحيوان ج ٥ ص ٥٠٢ .

(٥) الذنابي : الذنب « بفتح النون » ولراد أنهم سيتسبيون في الصيام فيجرون

على أنفسهم المتاعب .

(٦) البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٣ .

(٧) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٧٨ .

وأخيراً هذه طرفة تدل على شيء من طباع الأعراب وحبهم للمال ،
وتكالبهم عليه بأى وسيلة كان ، ومن أى سبيل حُمِّل ، حكاه الجاحظ
فى « البيان والتبيين » فى أثناء حديثه عن « العصا » يقول :

« ومن جل القول فى العصا وما يجوز فيها من المنافع والمرافق تفسير شعر
« غنية » الأعرابية فى شأن ابنها .

وذلك أنه كان لها ابن شديد العرامة ، كثر الثقلت^(١) إلى الناس مع ضعف
أسر ، ودقة عظم ، فوائت مرة فتى من الأعراب فقطع أذنه فأخذت الدية ،
فزادت دية أذنه فى المال وحسن الحال ، ثم وائت بمد ذلك آخر فقطع شفته ،
فأخذت دية شفته ، فلما رأت ما قد صار عندها من الإبل والغنم والمتاع
والكسب يجوارح ابنها حسن رأيها فيه ، فذكرته فى أرجوزة لها تقول فيها :
أحلف بالمروة يوماً والصفاء أنك خير من تفاريق العصا^(٢)

ثم يماق الجاحظ على هذه الفادرة بقوله :

« ولا نعرف شيئاً يشبه معنى شعر « غنية » بعينه لا يقاد منه شيئاً .
ولكن زعم بعض أصحابنا أن أعرابيين ظريفين من شياطين الأعراب
حطمتها السفنة^(٣) ، فأنحدرا إلى العراق ، واسم أحدهما « حيدان » ، فبينا هما
يتماشيان فى السوق إذا فارس قد أوطأ دابته رجل حيدان فقطع إصبعها من
أصابعه ، فتعلقا به حتى أخذاه منه أرش^(٤) الإصبع ، وكانا جائعين مقرورين ،

(١) الثقلت : للنازعة .

(٢) تفاريق العصا : ما ينتج عنها عندما تتكسر وهو مثل معناه أن لأجزائها
وتفاريقها منافع كثيرة وإنما لا يذهب منها شيء باطلا .

(٣) السنة : الجذب . (٤) الأرض : الدية .

فحين صار المال في أيديهما قصدا لعمض الكرايج^(١)، فاجتاعا من الطعام ما اشتهيا، فلما أكل صاحب حيدان وشبع أنشأ يقول :

فلا غرث^(٢) ما كان في الفاس كربيح

وما بقيت في رجل حيدان إصبع

ويعلق الجاحظ على هاتين القصتين بقوله :

« وهذا الشعر وشعر « غنية » من الطرف الناصع الذي سمع به ، وظرفت الأعراب لا يقوم له شيء »^(٣) .

ثالثا : الحق والبله :

وقد أدخلناهم في نوعية واحدة ؛ لأن أدواءهم متشابهة ، ومردوها جميعاً إلى ضعف العقل ، وقلة الفهم ، واستحكام الغفلة والجهل .

وبعض هؤلاء تكون ميوبهم في أصل الخلقة ، وإلّا روا عنها بمسئلين إلا أن تصرفاتهم في بعض الأحوال تثير ضحك الأسوياء وسخرتهم .

ويعمل « برجسون » هذه الظاهرة بأن الضحك وسيلة فعالة لتصحيح أو تعديل تلك الآليات الضارة التي تنطوي عليها حياتنا الاجتماعية المادية بإظهارنا على ما فيها من سخف وعبث وتفاهة^(٤) .

ولما كان الأحق أو الأدب يقصر عن مراعاة قواعد العقل ، ولا مهادنة

(١) جمع كربيح - فارسي معرب - : حانوت .

(٢) الغرث : الجوع . (٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٠ .

(٤) سيكولوجية الفكاهة والضحك ص ٨٣ .

القبائل التي ارتفعت الجماعية الإنسانية ، وكأنه في مسلكه الشاذ يتحرك كما
تتحرك الآلة « فإن الجماعة تتخذ من الضحك سلاحاً تسمى به إلى المحافظة على
المرتبة التي وصلت إليها الإنسانية فوق الجراد والحيوان ، وما تريد الجماعة أن
تقضى عليه لدى أفرادها إنما هو جود البدن ، وتصلب العقل ، وتهمج الخلق ،
لأنها تريد لهم أعظم قدر من المرونة ، وأعلى درجة ممكنة من الروح الاجتماعية
وهذا الجود هو في حد ذاته مدعاة للسخرة ، ومن هنا فإن الضحك يحى
ليكون بمثابة « العقوبة الاجتماعية » التي يفرضها المجتمع على ضحايا الجود
والآلية والرتابة »^(١).

وهذه طائفة من نوادر الحقي والبله والمتباهين كما رواها الجاحظ في كعبه :

« أرسل ابن لمجل بن الجيم فرساً له في حلبه فجاء سابقاً ، فقال لأبيه : يا أبا
بأي شيء أسميه ؟ فقال : انقأ إحدى عينيه وسمه الأعور »^(٢) .

قال الجاحظ : « حدثني محمد بن عباد بن كاسب قال : قال لي الفضل بن
سروان - شيخ من طياب السكوفيين وأغنيائهم - : إن ولدك مائة ذكر
فسمهم كلهم محمداً ، وكنفهم بمحمد ، فإنك ستري فيهم البركة ، أو تدري
لأي شيء أكثر مالى ؟ قلت : لا والله ما أدري . قال : إنما أكثر مالى لأنى
سميت نفسي فبما بنى وبين الله محمداً ، وإذا كان اسمى عند الله محمداً فلا أبالى
ما قال الناس »^(٣) .

« أعطى المحلولى ابنه درهماً وقال : زنه ، فطرح وزن درهمين ، وهو يحسبه

(١) للرجع السابق ص ٨٤ . (٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٣) الحيوان ج ٣ ص ٢٧ .

وزن درهم ، فلما رأى الدرهم قد شال وضع معه وزن درهم ، فلما رفعه وجدته شائلا فألقى معه حبتين ، فقال أبوه : كم فيه ؟ قال : ليس بشيء وهو ينقص حبتين ١١ » (١) .

— « وقع بين جار لنا وجار له يكنى أبا عيسى كلام فقال : اللهم خذ منى لأبي عيسى . قالوا : أتدعو الله على نفسك ؟ قال : نخذ لأبي عيسى منى ١١ » (٢) .
— « لقي رجل رجلا ومعه كلمان ، فقال له : هب لي أحدهما . قال : أيهما تريد ؟ قال : الأسود . قال : الأسود أحب إليّ من الأبيض . قال : فهب لي الأبيض . قال : الأبيض أحب إليّ من كليهما ١١ » (٣) .

وسئل أبو سعيد الرضاعي — أحد الحقي — عن الدنيا والدائسة (٤) فقال : « أما الدنيا فهذه التي أنتم فيها . وأما الدائسة فهي دار أخرى بائرة من هذه الدار . لم يسمع أهلها بهذه الدار ولا بشيء من أمرها ، وكذلك نحن لم نسمع بشيء من أمرها إلا أنه قد صبح عندنا أن يبعثهم من قبلهم . وقد رآهم من ققاء ، وأنعامهم من ققاء ، وخيائهم من ققاء ، وهم في أنفسهم من ققاء ، وققاءهم أيضاً من ققاء . قالوا له يا أبا سعيد : زعمت أن أهل تلك الدار لم يسموا بهذه الدار ولا بشيء من أمرها وكذلك نحن لهم ، وأراك تخبرنا عنهم بأخبار كثيرة . قال : فن ثم أحب زيادة ١١ » (٥) .

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٢٥٠ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤١ .

(٤) كلمة الدائسة لا أصل لها . وإنما تذكر سألها بهذه اللفظة ليستخرج

منه ما يضحك .

(٥) المرجع السابق ص ٢٤٤ .

ومما يذكر الجاحظ في هذا المقام أنه حمل على بعض التبالين ، ممن يزهدون في الدنيا ، وينصرفون عنها ، مكثفين بلزوم المساجد ، والتفرغ للعبادة ، فقد عقد الجاحظ باباً في « البيان والتبيين »^(١) جعل هدفه : (باب من البله الذي يعتري من تبل العبادة وترك التعرض للتجارب) ، سرد فيه طائفة من نوادر هذا الصف من الناس ، منها : أن أحدهم لم يكن يفرق بين الدائق والقيراط ، ومنها ما حكاه الجاحظ بقوله : « وكان عامر بن عبد الله بن الزبير في المسجد ، وكان قد أخذ عطاءه ، فقام إلى منزله ونسيه ، فلما صار في منزله وذكّره بعث رسولاً ليأتيه به . فقيل له : وأين تجد ذلك المال ؟ فقال : سبحان الله ! أو يأخذ أحد ما ليس له ؟ »

وعامر هذا هو الذي سُرقت نعله فلم يتخذ نعلًا حتى مات وقال : أكره أن أتخذ نعلًا فلعل رجلاً يسرقها فيأثم .

ويعلق الجاحظ على هذه الروايات فيبين فضل أرباب التقية ، وأهل الفقه والمعرفة على أولئك الذين انقطعوا للعبادة ، وأهلوا جانب الدنيا ، ويملل لذلك تعليلًا مقبولاً فيقول :

« وقالوا : إن الخلفاء والأئمة أفضل من الرعية ، وعامة الحكام أفضل من المحكوم عليهم ولهم ؛ لأنهم أفتة في الدين ، وأقوم بالحقوق ، وأرد على المسلمين ، وعلمهم بهذا أفضل من عبادة العباد ؛ لأن نفع ذلك لا يمددوهم رؤسهم ، ونفع هؤلاء يخص ويعم . »

ثم يؤكد الجاحظ أن العبادة أسمى من أن تكون غايتها جعل العباد بلها ، أو تحصيلهم معتوهين . يقول :

(١) ج ٢ ص ٣٤٩ وما بعدها .

« والعبادة لا تدله ولا تورث البله إلا لمن آثر الوحدة وترك معاملة الناس ،
ومجالسة أهل المعرفة . فمن هنالك صاروا بلها ، حتى صار لا يحىء من أعبادهم
حاكم رلاً إمام »^(١) .

وفي موضع آخر يفقل عن الحسن البصري قوله : « يكون الرجل عابداً
ولا يكون عاقلاً ، ويكون عابداً عاقلاً ولا يكون عالماً »^(٢) .

وفقل عن أيوب السخيتاني قوله :
« في أصحابي من أرجو دعوته ولا أقبل شهادته »^(٣) ، ويعلق الجاحظ
على مقالة السخيتاني بقوله :

« فإذا لم يمز في الشهادة كان من أن يكون حاكماً أبعد » .

رابعاً - المعلمون :

وقد اشتهر عن الجاحظ أنه وقف من المعلمين موقفاً عدائياً ، وجعلهم موضع
سخرية وتفدره ، ووضع رسالة في ذمهم ، وهو في الحقيقة لم يتهم جملة المعلمين ،
ولم يستسقط سوى طائفة منهم ، وهم الذين يملكون أبقاء العامة ، ويغلب عليهم
الحق والنفلة ، نظراً لضيق عقولهم وقلة مسارفهم ، واختلالهم بمعاينة
الصبيان لهم .

ويستثنى الجاحظ صفوة المعلمين ، ممن يتصفون برجاحة العقل ونباهة الشأن
وقوة الشخصية ، ويتضح من حديث الجاحظ عن المعلمين الذين سخر بهم ،

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٤٩

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٢

(٣) المرجع ج ٢ ص ٣٥٠

وروى طرائفهم ونواديرهم ، أنهم يمثلون في عصره شيوخ « المكاتب » الذين كانوا يعلمون الناشئة في القرى والبادى إلى زمن قريب في بلادنا ، ولا يخفى على من خالط أولئك الشيوخ أن نفراً منهم يشبهون من بعض الوجوه طائفة المعلمين التي اختصها الجاحظ بتهكمه وسخريته .

وبوضح الجاحظ فرق ما بين النوعيتين فيؤكد أن المعلمين عنده على ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ،^(١) .

وقد ساق الجاحظ هذا الكلام بعد أن سرد طائفة من الأقوال السائرة التي يفهم منها استسقاط المعلمين ، ورميهم بالحق والقفلة من مثل قول بعضهم : « لا تستشيروا معلماً ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء » ويقول : ومن أمثال العامة : « أحق من معلم كتاب » وقد ذكرهم صقلاب فقال : وكيف يرجى الرأى والمقل عند من يروح على أثنى ويندو على طفل^(٢)

ويقول الجاحظ : « كان ابن شبرمة لا يقبل شهادة المعلمين »^(٣) . والحق أن الجاحظ لم يعب المعلمين جملة ، ولم يعمط أهل العلم والفضل منهم حقهم بل أثنى ثناء حسناً على طائفة من جلاتهم ، يقول :

(١) البيان والنبين ج ١ ص ٢٥٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٨

(٣) أخبار الحق ص ١٤٠

« فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة السكاساني ، ومحمد بن المستنير الذي يقال له قطرب ، وأشباة هؤلاء يقال لهم حتى ؟ » (١)

« وما كان عندنا بالبصرة رجلان أروى لصنوف العلم ، ولا أحسن بياناً من أبي الوزير ، وأبي عدنان الملمين ، وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا » (٢)

وإذا فالجاحظ لم يتجنّ على المعلمين عامة ، ولم يسخر إلا من هو أهل للسخرية منهم ، ويبدو أن الجاحظ كان على وعى بالسبب الذي من أجله دخل الخلل والتخليط على عقول بعض المتألمين ، وهو انقطاعهم لمخالطة الصبيان ، وطول معاشرتهم لهم ، وما يستتبعه ذلك من ضيق الأفق ، وجود العقل ، وانحصار التفكير في زاوية ضيقة ، بالإضافة إلى أن مخالطة الصغار تتطلب نزولاً إلى مستوهم في التفكير والتعمير ، واستمرار ذلك الدهر الطويل ، يورث في معظم الأحيان نوعاً من الهلوسة ، وقد أشار الجاحظ في رسالته عن المعلمين إلى هذا المعنى فقال :

« وقد قالوا : الصبي عن الصبي أفهم ، وبه أشكل . وكذلك الغافل والناقل ، والأحمق والأحمق ، والنبي والنبي ، والمرأة والمرأة . قال الله تبارك وتعالى : (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً) ؛ لأن الناس عن الناس أفهم ، وإليهم أسكن . فما أعان الله تعالى به الصبيان أن قرّب طبائعهم ومقادير عقولهم من مقادير عقول المعلمين .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(٤ - أدب السكامة عند الجاحظ)

وتجمع الججاج - وهو يسير - كلام امرأة من دار قوم، فيه تخطيط وهذان
 فقال: مجنونة، أو ترقص صبيا .

ألا ترى أن أبلغ الناس لساناً ، وأجودهم بياناً ، وأدقهم فطمة ، وأبهم
 روية ، لو ناطق طفلاً أو ناغى صبيا ، لتوخى حكاية مقادير عقول الصبيان ،
 والشبه لخارج كلامهم ، وكان لا يجد بداً من أن ينصرف عن كل ما فضله
 الله به بالمعرفة الشريفة ، والألفاظ السكرية ، وكذلك تكون المشاكلة بين
 المتفنيين في الصناعات ^(١) .

ومن ثم نرى في طرائف الجاحظ المتعلقة بتلك النوعية من المعلمين ، تسجيلاً
 لطبايعهم ، وتصويراً لحقهم ، وحكاية لنواديرهم مع الصبيان ، وما يتعرضون له
 من عبث الصغار بهم ، وسخرية الكبار من تصرفاتهم ، ومن تلك الطرائف :
 — « قال الجاحظ : قلت لمعلم : لم تضرب غلامك من غير جرم ؟ قال :
 جرمهم أعظم الأجرام ، يدعون لى أن أحج ، وإن حجبت تفرقوا فى المسكاتب ،
 فتقى أحج ؟ أنا مجنون ؟ » ^(٢) .

وجاء إليه معلم فقال : أنت الذى صنعت كتاب المعلمين ، تعيهم ؟ قال نعم .
 قال وذكر فيه أن بعض المعلمين جاء إلى الصياد وقال : إيش تصطاد ، طريا
 أم مالخا ؟ قال : نعم ، قال : ذلك أبله ولو كان فيه ذكاء كان يقف فينظر إن
 خرج طرى علم أو خرج مالخ علم ا ^(٣) .

(١) رسائل الجاحظ ج ٣ ص ٣٧

(٢) أخبار الحقى ص ١٤١

(٣) المرجع السابق ص ١٤٢

وقال الجاحظ : سررت بمعلم وقد كتب لفلان - وإذا قال فلان لابنه وهو يعظه يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً - فقلت له : ويحك فقد أدخلت سورة في سورة قال : نعم ، إذا كان أبوه يدخل^(١) شهرراً في شهر ، فأنا أيضاً أدخل سورة في سورة ، فلا آخذ شيئاً وإلا أتت به يعظم شيئاً^(٢) .

وقال : « سررت بمعلم صبيان وهو جالس وحده وليس عنده صبيان فقلت له : ما فعل صبيانك ؟ قال : ذهبوا يتصافعون ، فقلت : أذهب وأنظر إليهم ؟ فقال : إن كان ولا بد فمط رأسك لثلاث بحسبك أنا فيصغفوك حتى تدمى^(٣) » .

وقال الجاحظ : « من أعجب ما رأيت معلماً بالسكوفة وهو شيخ جالس ناحية من الصبيان يبكي ، فقلت له يا عم : مم تبكي ؟ قال : سرق الصبيان خبزى^(٤) » .

خامساً : البخل :

أما نواذر البخل ففى من أنفاس ما للجاحظ من فكاهات ، وأحفلها بالمتعة ، وأملتها بالسخرية المأدبة ، والاحتجاج المضحك ، والتلميح البارع ، والتهكم اللاذع .

(١) أى يؤخر أجرة شهر حتى يدخل الشهر التالى ويضيع على المعلم أجرة المنقضى منهما .

(٢) المرجع السابق والصفحة .

(٣) أخبار الحمقى ص ١٤٢

(٤) المرجع ص ١٤٣

ويعد كتاب « البخلاء » الأثر الأدبي الفذ الذي يمثل الأدب الفسكاهى عند العرب أصدق تمثيل ؛ إذ استطاع أبو عثمان من خلاله أن يجعل القارىء فى مقعة متصلة من مفتحة إلى ختامه ، وأطلعنا بصورة بينة على قدراته الفنية ، فى اصطناع السخرية ، وحبك الحوار المضحك ، على نحو لم يطاوله فيه أحد ، وبأسلوب لم يسبق إليه ، وقد أشار الدكتور طه الحاجرى فى تقديمه لكتاب البخلاء إلى أن أحاديث البخل وأخبار البخلاء قبل تناول الجاحظ لها كانت تسير فى طريقين :

— طريق دعاة الشعوبية الذين يردون على العرب نفخهم التقليدى بالسكرم ويزعمون أن أكثر هذا الفخر كلام لا يبنى به الفعل ، والطريق الأخرى يمثلها دعاة الدولة القائمة ، وهم الذين وضعوا أنفسهم فى خدمة السلطان ، وكان خلفاء الدولة العباسية بحاجة إلى التشجيع على بنى أمية ، فجعل أولئك الرواة يتلقفون أخبار الشنع ما وجدوها ويضعونها ، ويتزيدون فيها على خلفاء بنى أمية وعالمهم وسراهم ...

أخذ الجاحظ هذا الموضوع الذى كان أكبر مشاركة للشهوات السياسية والعنصرية ، والذى كان جديراً أن يثير عوامل المشاقة والخاصمة فجعله موضوعاً أدبياً خالصاً ، ومتممة فنية رائعة ، وكان رهيناً بالأغراض الموقوتة التى أثير من أجلها ، فصار خالداً خلود الفس الإنسانية^(١) .

والحق أن كتاب « البخلاء » جرى بأن يبعث من جوانب ممتدة ، وقين بأن يكون موضوعاً لمديد من الدراسات التاريخية والاجتماعية واللغوية

(١) مقدمة البخلاء ص ٢٨ — ٣٣ (باختصار) .

والعرقية ، كما أن له أهمية كبرى لمن يريد درس العصر العباسي من الناحية الحضارية ويعتبر على صنوف المآكل والأطعمة والأشربة والحلوى ، وأيضا على كثير من عادات الناس وأعرافهم ، وقد عالج الكتاب المحدثون بعض هذه الجوانب ، أما نحن فسنقتصر حديثنا على موضوع الفكاهة واللوان الطرائف والنوادر التي حشدها الجاحظ في « بخلائه » وما تنطوي عليه من قيمة فنية ، بحسبانها عملا أدبيا متمكنا ، ويهني - قبل أن أعرض لطبيعة الإطار الفكاهي في البخلاء - أن ألقت القارئ إلى مجموعة من الظواهر المهمة التي تلقى الضوء على أبعاد عبقرية الجاحظ الفنية من خلال المنهج الذي اتبعه في رسم عالم « البخلاء » الزاخر بالصراع ، المليء بالصور النابضة ، والدلالات المؤثرة .

وتتلخص تلك الظواهر فيما يلي :

أولا : وجد الجاحظ وهو يشرع في وضع كتاب « البخلاء » السبيل منفسحا أمام ملكته الأدبية ، فتجلت في ذلك المؤلف بصورة وضيفة وسارت في خط مواز لروح المرح عمده ، وهذان - في اعتقادي - هما رافدا البراءة الفنية في كتاب البخلاء ، فقد كان المرح جزءا أساسيا في التكوين النفسي للجاحظ ، ولم تكن فكاهاته مضمومة ، ولم يكن يشرع في كتابته إلا في رغبة روائية ، بل كانت هذه الطبيعة المرحية تقالبه في سائر كتاباته ، فلما شرع يكتب عن نوادر البخلاء لم يجد حرجا في أن يرسل العنان لروحه المرحية لتبلغ الغاية في الاسترسال مع الدعابة والتهكم والسخرية والتندر .

ومن طبيعة الجاحظ أنه إذا تناول مسألة أو عرض لقضية ، فإنه يتوسل إلى أمثاقها ، ويطوف في جنباتها ، ويميزته بحسبانته شيخ الأدباء أنه امتلك القدرة البليغة على تسجيل ما يعين له من خواطر ، وما يحصله من معارف ،

وما يدور على ألسنة الناس من اعتقادات ، وما قد يتفاقلونه من أساطير ، وفاهيميك بهذه الليزات من رجل حسبه أنه سطر بأسلوبه الرائع دقائق الحياة في عصره . وأطلعنا على حيوات الناس ، والخيوط الدقيقة التي تربط بين مناحي البنية الاجتماعية في عصره . وقلما تيسر لنا أن نظفر بمثل هذه الدقائق ، أو نمائش تلك الأحداث ، كما جعلنا الجاحظ تتمثلها وكأننا نراها بأعيننا ، أقول قلما نظفر بمثل ذلك لدى كاتب غير الجاحظ .

فقد رسم الجاحظ لقارىء البخلء عالماً زاخراً بالحياة مليئاً بالصراع ، ولم تنحصر مهمته في سرد نوادرهم أو حكاية طرائفهم فحسب كما كان يفعل في فكاهاته الأخرى ، بل أطلع قارئه على « قطاع » من المجتمع في عصره ، وهم أنصار مذهب الجمع والمنع ، وكان الجاحظ كان ينقل للأجيال صورة أمينة لذلك الصنف من الناس ، وبالتالي للحياة بصفة عامة في حواضر العراق بعد أن بلغت الحضارة الإسلامية مبلغها ، وبعد أن أحدثت عوامل التقاء الأجناس وامتزاج الثقافات في تلك البيئة تأثيراتها . وبمباراة أكثر إيجازاً ، استطاع الجاحظ أن يلقى من خلال كتاب « البخلء » أضواء مهمة على ملامح الشكل الاجتماعى في عصره ، وذلك في إطار فسكاهى ، يدل دلالة قوية على أن الكتابة الفنية في لغة العرب قد بلغت في عصر الجاحظ طوراً من الرقى جد عظيم .

ولعله لا يخفى على القارىء المتمرس بأسلوب الجاحظ ، الملم بطريقته في التأليف أن جل ما يفسيه لبخلئه أو يحكيه عنهم من أقوال واحتجاجات هو في الحقيقة للجاحظ نفسه ، ولذا نقطع بأن الجاحظ قد نسج هذه الروايات من خياله ، وإنما الذى ترجعه هو أنه وإن يكن مضمون بعض هذه القصص والطرائف ثابت وصحيح النسبة لقائله ، فإن للجاحظ الدور الأساسى في صياغتها وترتيبها ،

وإدارتها على النحو الذى يحقق هدفه الفنى فى إمتاع قرائه بهذا الأثر الأدبى الطريف .

٢ — كانت شخصية الجاحظ أقوى ما تكون ظهوراً « وحضوراً » فى كتاب البخلاء ، فعلى الرغم من اختفائه المصطنع وراء شخصيات عديدة من عامة البخلاء « ومتعاقليهم » ، إلا أنه كان إختفاء له دواعيه الفنية المتمثلة فى جدية الحوار ، وواقعيته ، بيد أن الجاحظ كان « يحضر » فى مواطن محددة ، ولدواعى قوية ، فتحضر بحضوره شخصية العالم الفاضل ، والحكيم الفاضح ، الذى بوجهه وبصريحه ، ويعلق وينقده .

من أمثلة ذلك ما ذكره الجاحظ فى أثناء حكايته نوادر المروزيين البخلاء ، إذ استطرد فحكى القصة التالية قال :

« وسمع رجل من الراورة الحسن^(١) ، وهو يحث الفاس على المعروف ، ويأمر بالصدقة ، ويترل : ما نقص مال قط من زكاة ، ويعدم سرعة الخلف ، فتصدق بماله كله فافقر ، فانتظر سنة وسنة ، فلما لم ير شيئاً بكر على الحسن فقال : حسن ما صنعت بي ؟ صنعت لى الخلف ، فأنتفت على عدتك ، وأنا اليوم مذ كذا وكذا سنة أنتظر ما وعدت ، لا أرى منه قليلاً ولا كثيراً ، هذا يحمل لك ؟ اللص كان يصنع بي أكثر من هذا^(٢) ؟ »

ولم يفت الجاحظ أن يعلق على تلك القصة ، مصححاً جهة الخطأ فى فهم المروزي فيقول :

(١) يقصد به الحسن البصرى .

(٢) البخلاء ص ٢٧ .

والخلف يكون معجلاً ومؤجلاً ، ومن تصدق وتشترط الشروط استحق
الحرمان ، ولو كان هذا على ما نوهه الروزي لسكانت الخنة فيه ساقطة ،
ولترك الناس التجارة ، ولما بقي فقير ، ولذهبت العبادة^(١) .

ويقول في موضع آخر :

« وقد عاب فاس أهل المازح والمدير^(٢) بأمور : منها أن خشكفانهم^(٣)
من دقيق شمير ، وحشوه - الذي يكون فيه من الجوز والسكر - من دقيق
خشكار^(٤) »^(٥) .

ثم يعلق الجاحظ على ذلك فيقول :

« وأهل المازح لا يفرقون بالبخل ، ولكنهم أسوأ الناس حالاً فتقديرهم
على قدر عيشهم . وإنما نحكي عن البخلاء الذين جمعوا بين البخل واليسر ،
وبين خصب البلاد وعيش أهل الجذب . فأما من يضيق على نفسه لأنه لا يعرف
إلا الضيق ، فليس سبيله سبيل القوم .

ومن هذا التعليل يتضح لنا مقدار إدراك الجاحظ للامح الشخصيات التي
جعلها موضوعاً لكتابه ، وأنه كان على وعى تام بحقيقة البخل ، يهتم بتتبع

(١) المرجع السابق والصفحة .

(٢) هما موضعان قرب الرقة .

(٣) نوع من السمك يحشى بالجوز والسكر .

(٤) الخشكار : ما لا لب له من الشمير . وعلى هذا فوجه الاتهام بالبخل أنهم
يصنعون السمك من دقيق الشمير ، وبدلاً من أن يكون حشوه الجوز والسكر يحلون
هم من دقيق الشمير أيضاً .

(٥) البخلاء ص ١٢٢ .

مظاهره في سلوك البخلاء الحقيقيين ، الذين يصدق عليهم هذا الوصف ، ولا يمدوم إلى غيرهم ، أو يدخل فيهم من يبتسر بهم في شحهم وتقتدرهم .

وأحياناً يشعر الجاحظ أن في القصة التي يتفاقلها الناس إغراقاً في المبالغة ، وبمبدأ عن الواقع ، مما يجعلها منافية للمعقول ، عصبية على التصديق ، فلا يتركها الجاحظ دون أن يوضح للقارىء رأيه فيه .

ومن أمثلة ذلك ما حكاه بقوله^(١) :

« وحديث سمعناه على وجه الدهر ، زعموا أن رجلاً قد بلغ في البخل غاية وصار إماماً ، وأنه كان إذا صار في يده الدرهم ، خاطبه وفاجاه ، وفداه واستبطاه ، وكان مما يقول له : (كم من أرض قد قطعت ، وكم من كيس قد فارقت ، وكم من حامل رفعت ، ومن رفيع قد أخملت ، لك عندي ألا تعزى ولا تضجى) ، ثم يلقيه في كيسه ويقول له : (اسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تذلل ، ولا تزعج منه) ، وإنه لم يدخل فيه درهماً قط فأخرجه . وأن أهله ألحوا عليه في شهوة ، وأكثروا عليه في إنفاق درهم ، فدافعهم ما أمكن ذلك ، ثم حمل درهماً فقط ، فبينما ذاهب إذ رأى حواء قد أرسلت على نفسه أقمى لدرهم يأخذه ، فقال في نفسه ، أنلف شيئاً تبذل فيه النفس بأكلة وشربة ؟ والله ما هذا إلا موعظة لي من الله ، فرجع إلى أهله وردّ الدرهم إلى كيسه ، فسكان أهله منه في بلاء ، وكانوا يتمنون موته والخلاص منه ... فلما مات وظنوا أنهم قد استراحوا منه قدم ابنه فاستولى على ماله وداره ، ثم قال : ما كان آدم^(٢) أبى ؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الإدام .

(١) البخلاء ص ١٣١ .

(٢) آدم : ما يؤكل به الحبز أى شيء كان .

قالوا : كان يقادم بحبنة عذده ، قال : أرونيها ، فإذا فيها حز كالجدول من أثر مسح اللقمة ، قال : ما هذه الحفرة ؟ قالوا : كان لا يقطع الجبن ، وإنما كان يمسح على ظهره فيجفر كما ترى . قال : فهذا أهلكنى ، وبهذا أقعد فى هذا المقعد ، لو علمت ذلك ما صليت عليه . قالوا : فأنت كيف تريد أن تصنع ؟ قال : أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة ! ! ثم يماق الجاحظ مفتقداً الجزء الأخير من القصة فيقول^(١) :

« ولا يعجبني هذا الحرف^(٢) الأخير ؛ لأن الإفراط لا غاية له ، وإنما نحسب ما كان فى الغاس ، وما يجوز أن يكون فيهم مثله ، أو حجة أو طريقة ، فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره » .

و « حضور » الجاحظ يكون مباشراً كما اتضح لفا من القول التى سقناها ، ويكون متوارياً فى بعض الأحيان كأن يهتم بإبراز قيسة تهذيبية بأن يجعل سياق القصة مقفياً بتأكيده حكمة من أقوال المجربين أو مصداقاً لوصية من وصايا الدين .

ولنتأمل هذه الطرفة التى حكها الجاحظ عن زبيدة بن حميد الصيرفى وجعل نهايتها حديثاً شريفاً .

قال : وسكر زبيدة ليلة فكسا صديقاً له قيصاً ، فلما صار القميص على النديم خاف البدرات^(٣) . وعلم أن ذلك من هفوات السكر . فمضى من ساعته

(١) للرجع السابق ١٣٢ (٢) يقصد بالمعروف هنا : العبارة .

(٣) البدوات : من بداله فى الأمر : نشأ له فيه رأى . ويقصد هنا أن يبدو زبيدة رأى آخر فى الهدية .

إلى منزله ، فجعله برنسكانا^(١) لاسرأته ، فلما أصبح ، سأل عن القميص وتفقده .
ف قيل له : إنك قد كسوته فلانا ، فبحث إليه ثم أقبل عليه فقال : ما علمت أن
هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ؟ وبعد فإني أكره
ألا يكون لي حمد ، وأن بوجه القاس هذا منى على السكر ، فردّه على حتى أهبه
لث صاحبها عن طيب نفس ، فإني أكره أن يذهب شيء من مالي باطلا ، فلما
رآه صمم أقبل عليه فقال : يا هفاه^(٢) ! إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤخذون
بشيء من ذلك ، فرد القميص عاقل الله . قال له الرجل : إني والله قد خفت
هذا بعمينه ، فلم أضع جنبي إلى الأرض حتى جئته لاسرأتي ، وقد زدت في السكين
وحذفت المقادير فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذ ، فقال : نعم آخذه ؛
لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك . قال : فإنه عند الصباغ . قال : فهاته .
قال : إيس أنا أسلمته إليه . فلما علم أنه قد وقع ، قال : بأبي وأمي رسول الله
صلى الله عليه وسلم حيث يقول : جمع الشر كله في بيت وأغلق عليه ، فكان
مفتاحه السكر^(٣) .

٣ - أهتم الجاحظ في كتاباته عامة بمتبع كثير من أسرار النفس الإنسانية
وتحليل طبائع الناس ، والتغلغل في سبر دخالهم ودوافع سلوكهم ونزعاتهم ،

(١) البرنسكان : السكاه .

(٢) بمعنى يا رجل في النداء خاصة .

(٣) البخلاء ص ٣٦ والحديث لم أجده بهذا اللفظ ، وروى ابن ماجه في باب
الفن حديثا بمعناه . . عن أبي النضر قال أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم « أن
لا تشرك بالله شيئا ، وإن قطعت وحرقت ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً فمن تركها
متمعداً برئت منه الذمة ، ولا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر » .

ويبدو الجاحظ في هذا الجانب وكأنه خبير من خبراء علم النفس الذين تمرسوا بطبائع الناس ووضعوها تحت ملاحظاتهم وتجاربهم وقتنا طويلا .

ولا يعدم القارئ لكتيب الجاحظ ورسائله أن يطالع بين الحين والحين إشارات قيمة من هذا النوع ، فيها هو ذا يحلل ظاهرة السكبر ونوازع التكبرين في كتابه « الحيوان » فيقول :

« والسكبر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ، ولكن الذلة والقلّة مانعتان من ظهور كبرهم ، فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة - كمبيدنا من السند ، ودمتنا^(١) من اليهود . . والجلّة أن كل من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين أدنى قدرة ظهر كبره على من تحت قدرته على مراتب القدرة ما لا خفاء به ، فإن كان بماله في صدور الناس تزيّد في ذلك واستظهرت طبيعته بما يظن أن فيه رقع ذلك الخرق ، وحياص^(٢) ذلك الفعق ، وسد تلك الثلمة . فتفقد ما أقول لك ، فإنك ستجد فاشيا ، وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكة من الحر ، وشيء قد قتله علما وهو أنى لم أر ذا كبر قط على من دونه إلا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك وودنه^(٣) .

وهذا الكلام يدل دلالة قوية على تعمق الجاحظ في تأمل الظواهر النفسية ، وميله إلى بحثها والتعميل لها ، ولا يخفى ما يتسم به تحليله لظاهرة السكبر من عمق النظر ، ودقة البحث وصواب الاستنتاج .

(١) يقصد أهل الذمة وهم الذين تربطهم بالمسلمين عهود .

(٢) حياص : خياطة .

(٣) الحيوان ج ٦ ص ٧١

ومثال آخر على هذه النزعة الجاحظية نلصه في إحدى رسائله وهي رسالة الحاسد والمحسود إذ يقول مبيناً طبيعة الحسد وتمسكه من نفس الحاسد :

« وأنا أقول حقاً : ما خالط الحسد قلباً إلا لم يسكنه من ضبطه ، ولا قدر على تسجيئه وكتمانه ، حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه ، فيستعبده ويستميله ، ويستنطته لظهوره عليه ، فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ، ومن الأسر على أسيره .

وكان ابن الزبير بالصبر موصوفاً ، وبالدهاء معروفاً ، وبالعقل موسوماً وبالمدارة منهوماً^(١) ، فأظهر بلسانه حسداً كان أضب^(٢) عليه أربعين سنة ابني هاشم ، فما اتسع قلبه لسكتانه ، ولا صبر على اكتتامة ، لما طالت في قلبه طائلته أظهره وأعلنه ، مع صبره على المسكاره ، وحمله نفسه على حثفها ، وقلة اكترائه والتفاته لأحجار المجانيق التي كانت تمر عليه فتذهب بطائفة من قومه .

حدثت بذلك ... عن سعيد بن جبير قال : قدت ابن عباس حتى أدخلته على ابن الزبير ، قال^(٣) : أنت الذي تؤنبي ؟ قال : نعم ، - لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس بمؤمن من بات شبعاناً^(٤) وجاره طاو . فقال له ابن الزبير : لمن قلت ذلك ؟ إني لأكتم بنفصكم أهل البيت منذ أربعين سنة . فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنهما عسيبا نخل . ثم قال لابن الزبير : نعم فليبلغ ذاك منك ما عرفتك .

(١) المنهوم بالشيء : المولع به . (٢) أضبره .

(٣) أي ابن الزبير .

(٤) كذا جاء مصروفاً منونا وهو مسموع .

ثم يعاقب الجاحظ على الحديث بقوله :

« ولقد أجلت الرأى ظهراً لبطن وفكرت في جوابه لابن عباس أن أجده له معنى سوى الحسد فلم أجده ، وكانت وخزة في قلبه فلم يبدها . وفروع بنى هاشم حول الحرم باسقة ، وعروق دوحانهم بين أطباقهم إراسية ، وبحالهم من أعاليها عامرة ، وبحورها بأرزاق العباد زاهرة ، وأجمعها بالهندى زاهرة . فلما خلت البطحاء من صفادبدها استقبله بما أكن في نفسه »^(١) .

ولا ريب أن تصريح الجاحظ بأنه أجل الرأى في تلك الواقعة ، وقلبه ظهراً لبطن - يدل دلالة قوية على اهتمامه بتلك الجوانب الدقيقة ، وتتبع مسارها في نفوس أصحابها .

كان هذا شأن الجاحظ في سائر كتاباته ، غير أنه في كتابه « البخل » بخاصة قد أجاد في تصوير الدقائق النفسية لشخصيات البخل الذين عرض لهم بصورة تفوق كتاباته الأخرى التي هي من هذا الباب .

ولعل معالجة موضوع « البخل » كانت مدعاة لاهتمام الجاحظ بهذا الجانب على أساس أن البخل نقيصة نفسية ، وأنه شيء في أصل الطباع .

وتكتسب تحليلات الجاحظ التي من هذا النوع أهمية خاصة بحسبانها صورة لفكره المستنير ، وأثراً من آثار عبقرية الفذة ، ومثالا على براعته في التصوير النفسى الدقيق ، وتحليل دوافع السلوك لدى البخل .

وهذا مثال نسوقه من قصة ابن أبي المؤمل ، وهو أعجوبة في البخل وإمام في الاحتيايل لتفويت الفرصة على الطامعين فيما لديه .

(١) رسائل الجاحظ ج ٣ ص ١٣ وما بعدها .

يقول الجاحظ بعد أن سرد شيئاً من غرائبه وطرائفه :

« وكان إذا كان في منزله ، فربما دخل عليه الصديق له ، وقد كان تقدمه الزائر أو الزائران . . . فإذا دخل عليه الصديق له ، وقد عزم على إطفام الزائر أو الزائرين قبله ، وضاق صدره بالثالث - وإن كان قد دعاه وطلب إليه - أراد أن يمتثل له ، أو الواجب إن ابتلى كل واحد منهما بصاحبه ، فيقول عند أول دخوله وخلع نعله - وهو رافع صوته بالقنوية والتشيع - : (هات يامبشر لفلان شيئاً يطعم منه ، هات له شيئاً ينال منه ، هات له شيئاً) اتسكلاً على خجله أو غضبه أو أفقته ، وطعماً في أن يقول : (قد فعلت) .

فإن أخطأ ذلك الشقي وضعف قلبه وحصر ، وقال : (قد فعلت) وعلم أنه قد أحرزه وحصله وألقاه وراء ظهره ، لم يرض أيضاً بذلك حتى يقول : (بأى شيء تفديت ؟) فلا بد له من أن يكذب أو ينتحل المماريض ، فإذا استوثق منه رباطاً ، وتركه لا يستطيع أن يترمرم^(١) ، لم يرض بذلك حتى يقول في حديث له : (كنا عقد فلان فدخل عليه فلان فدعاه إلى غدائه فامتنع ، ثم بدا له فقال : (في طعامكم بقيلة^(٢) أنتم تجيدونها ثم تناوله) ، فلا يزال في وثاقه وفي سد الأبواب عليه ، وفي منعه البدوات ، حتى إذا بلغ الغاية قال : (يا مبشر أما إذ تفدى فلان واكتفى فهاث لنا شيئاً نعبث به) .

فإذا وضموا الطعام أقول على أشد حياء ، أو على أشد أكله عن حديث حسن ، أو عن خير طويل ، ولا يسأله إلا عن حديث يحتاج فيه إلى الإشارة باليد أو الرأس ، كل ذلك ليشغله ، فإذا هم أكلوا صدراً أظفر الفتور

(١) يترمرم : يتحرك .

(٢) لها نوع مما يضاف إلى الطعام من الشبهات .

والتشاغل والتفتقر كالشبعان المقتل ، وهو في ذلك غير رافع يده ولا قاطع أكله ، إنما هو التفت بعد التفت ، وتعليق اليد في خلل ذلك ، فلا بد من أن يتقبض بعضهم ويرفع يده وربما شمل ذلك جماعتهم ، فإذا علم أنه قد أحزهم واحتيال لهم ، حتى يقلعهم من مواضعهم من حول الخوان ، ويميدهم إلى مواضعهم من مجالسهم ، ابتداء الأكل ، فأكل أكل الجماعة المقرور^(١) ،^(٢) .

وبمثل ذلك التتبع الدقيق لسلوك ابن أبي المؤمل يسقط الجاحظ قناعه الزائف ، ويسخر من تظاهره بإكرام أصدقائه وضيافته حين يبادر فيدعو لهم بالطعام ، وهو لا يهدف إلا إلى إخراجهم ، وإلى أن يستنزح منهم اعترافاً بأنهم قد أكلوا ، حتى إذا تم له ذلك تهادى في إبعاد السبل أمامهم حتى لا يعمل أحدهم عن موقفة ، أو يندفع حين يرى الطعام ، ولا يقف بحل ذلك الرجل عند هذا الحد ، بل يبلغ به الأمر أن يحتال بكل سبيل حتى يحرم الذين سمح لهم بأن يشاركوه الطعام ، ويفتحهم عن المائدة ، وكأنه في ذلك كله طرفاً معهم في معركة سلاحه فيها الحيل الماكرة ، والخدع المعجبية .

وقد ينطق بخلاف الجاحظ بما يكشف عن نوازع نفوسهم ، ودوافع سلوكهم على نحو ما نرى في قصة الخزاعي التي حكها الجاحظ بقوله :

« واستدلف منه على الأسواري مائة درهم ، فجاءني وهو حزين متسكسر ، فقلت له : إنما يحزن من لا يجد بداً من إسلاف الصديق مخافة ألا يرجع إليه . »

(١) المقرور : من القر ، وهو البرد الشديد ، وإذا اجتمع على الإنسان الجوع والبرد عظمت رغبته في الطعام . والمراد : النهم والإقبال على الأكل بشراهة .

(٢) البخلاء ص ٩٩ - ١٠٠ .

ماله ولا يعد ذلك هبة منه ، أو رجل يخاف الشككية^(١) ، فهو إن لم يسأف
كراً أسأف خوفاً ، وهذا باب الشهرة فيه هي قرّة عينك ، وأنا واثق باعتزامك
وتصميمك ، وبقلّة المبالاة بتخييل الناس لك فما وجه انكسارك واعتنامك ؟

قال : اللهم غفرأ ! ليس ذلك بي ، إنما بي أنى كنت أظن أن أطاع الناس
قد سارت بمعزل عني ، وآيسة مني ، وأنى قد أحكمت هذا الباب وأتقنته ،
وأودعت قلوبهم اليأس ، وقطعت أسباب الخواطر . . . إن من أسباب
إفلاس المرء طمع الناس فيه ، لأنهم إذا طعموا فيه احتملوا له الحيل ،
ونصبوا له الشرك^(٢) ، وإذا يئسوا منه فقد أمن ، وهذا المذهب من « على »
استضعاف شديد .

وما أشك أنى عنده غمر^(٣) ، وأنى كبعض من يأكل ماله ، وهو مع هذا
خليط وعشير ، وإذا كان مثله لم يعرفني ، ولم يتقرر عنده مذهبي ، فما ظنك
بالجيران ، بل ما ظنك بالمعارف ؟ أراي أنفخ في غير فحم ، وأفدح بزند
مصلد . ما أخوفني أن أكون قد قصد إلى بقول ، ما أخوفني أن يكون الله
في سمائه قد قصد إلى أن يفقرني^(٤) .

٤ — رسم الجاحظ صوراً دقيقة لطبائع البخلاء ومنازعهم ، واستطاع أن
يحلل ظاهرة البخل تحليلاً رائعاً ، ويستبطن انعكاساتها على سلوك البخلاء

(١) الشككية : الشكوى .

(٢) الشرك : بضمّين - جمع شرك - بالفتح - : حبال الصائد .

(٣) الغمر من الناس : غير المحرب للأمر .

(٤) البخلاء من ٦١

(٥ - أدب الفكاكة عند الجاحظ)

استبطاناً عجيباً ، بحيث أصبح من اليسير عليه أن يدل القارئ على المعالم المميزة لمسلك كل طائفة منهم .

والطريف أن الجاحظ كان منطلقه في فهم البخل وتحليله منطلقاً سديداً ، فلم يقف من بخلائه موقف العداء ، ولم يشنع عليهم ولم يجاوز القصد في تصويره لهم . ومن شواهد ذلك ما نراه في ثمايا أقاصيصه التي يرويها عن بخلهم من أن ينعت بعضهم بنعموت تدل على الإقرار بفضلهم أو التنويه بمكانتهم فيما يحذقونه من فنون أو صناعات ، أو ما يتجلى به بعضهم من صفات أخرى مقبولة . فتراه يقول - مثلاً - في بداية حديثه عن قصة أحمد بن خلف :

« ومن طياب البخلاء أحمد بن خلف اليزيدي »^(١) ، ويقول عن الحزامي :

« كان أبخل من برأ الله ، وأطيب من برأ الله »^(٢) ، ويقول عن أبي سعيد المدائني :

« كان إماماً في البخل عنسدنا بالبصرة ، وكان من كهار المعينين »^(٣) ومياسيرهم ، وكان شديد العقل ، شديد العارضة ، حاضر الحجة ، بعيد الرؤية »^(٤) .

ومخلاء الجاحظ ليسوا صنفاً واحداً ، وإنما هم أصناف شتى وفرق متنوعة ،

(١) البخلاء ص ١٤ .

(٢) للرجع السابق ص ٥٩ .

(٣) المعينين نسبة إلى العينة ، وهي ضرب من المعاملات المالية يشبه أن يكون احتيالاً للخروج عن الربا ، ولها صور متعددة . راجع النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ج ٣ ص ١٦٤ ، وأيضاً شروح الحاجري على البخلاء .

(٤) البخلاء ص ١٣٧ .

فمنهم من يحب أن يوصف بالبخل ، ويسره أن يشيع عنه ذلك للقاصي والداني ،
كأبي محمد الحزامي الذي سقنا قصته قبل قليل .

ومنهم من يتعاشى هذا الوصف ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ويبالغ
في إخفاء بخله ، كابن أبي المؤمل الذي فضحه الجاحظ في حوارته معه حول
الإقلال من الخبز على مائده . ومن هذا الصنف أيضاً الدارديري الذي كان
يتخذ من إظهار البشور والسُرور في لقائه للقاص سترأ دون ماله .

ومنهم من لا يعبأ بهذا الوصف ، ولا يأبه لمن يعبئه به بل يجادل حوله
ويسخر منه ، ويحتج لرأيه ومذهبه في الانتصار للبخل ، ومن هؤلاء : سهل
ابن هارون ، والسكفدي ، والثوري ، وابن التوأم ، وغيرهم .

ملاحح الإطار الفكاهى لسكتاب البخلاء

أشاع الجاحظ فى كتاب البخلاء روح المرح ، وجعله معرضا للفكاهة الراقية التى تلذ النفس والعقل ، وبرع فى إمتاع قرائه بألوان شتى من التهمك الموجع ، والاحتجاج الطريف ، والخبر القادر العجيب ، وفضلا عن ذلك كله لم يخله من الفوائد والمعارف القافعة من قولة بليغة أو حكمة سديدة ، أو رأى صائب ، أو تقرير مفيد .

ويمكننا القول بأن أبرز مقومات الإطار الفكاهى فى « البخلاء » تتمثل فى الجوانب التالية :

١ - الاحتجاجات المضحكة :

ونعنى بها تلك المناظرات التى أدارها الجاحظ بين « متعاقلى » البخلاء من ناحية والمتعقبين لهم من ناحية أخرى ، فهذه المناظرات تدل على أن الجاحظ لم يرد أن يجعل كتابه سرد القوادى البخلاء فحسب وإنما أراد أن يضى على مؤلفه طابع الواقعية ، ويجعله موضوعا حيا ، يجذب انتباه القارىء ، وبشوقه لمتابعة تلك المناظرات والخصومات التى تأخذ شكلا جادا ، فى حين يكون مضمونها هزلا وسخرية ، ولا ريب أن هذه المماررات تضى على كتاب « البخلاء » ظللا مشوقة ، بحسبانها تنقل القارىء إلى مسرح الأحداث - إن صح هذا التعبير - فتجمله يعايش أولئك القوم ، ويسمع حوارهم ، ويشهدهم فى أنديتهم ومجالسهم ، وبهذا يكون الجاحظ قد أشاع « الواقعية » فى فكاهات البخلاء ، حتى لقد يحار القارىء فى بعض الأحيان ، فلا يدرى وجه الصواب فى احتجاجات أولئك البخلاء ، أهى صحيحة ؟ أم زائفة ؟ وذلك لأن الجاحظ

إمعانا مفه في حيوية الحوار وجديته - فقد ساق على ألسنة بخلائه حقائق لا تقبل
النقض ، ولـكـنـنـا عـنـد التأمـل نجد أن استفادهم إليها غير مسلم لهم .

وهذه قطعة من احتجاج أبي عبد الرحمن الثوري للرأس يوضح منها ما قلناه
فقد كان أبو عبد الرحمن - كما ذكر الجاحظ - يعجب بالرموس ويحمدها ويصفها
وكان لا يأكل اللحم إلا في يوم أضحي ، أو من بقية أضحيته ، أو يكون
في عرس أو دعوة أو سفرة ، وكان يسمي الرأس عرساً لما يجتمع فيه من الألوان
الطيبة ، وكان يسميه مرة الجامع ومرة السكامل .

ثم يخاض الجاحظ إلى احتجاجه للرأس وبيان فضله ومكانته فيقول :
« الرأس شيء واحد ، وهو ذو ألوان عجيبة وطعوم مختلفة ، وكل قدر وكل
شواء وإنما هو شيء واحد ، والرأس فيه الدماغ فطعم الدماغ على حدة ، وفيه
العينان وطعمهما شيء على حدة ، وفيه الشعب - أصل الأذن ومؤخر
العين وطعمها على حدة ، على أن هذه الشعمة خاصة أطيب من المعر -
الزبد وأدسم من السلاء^(١) وفي الرأس اللسان وطعمه شيء على حدة ، وفيه
الخيشوم والفصروف الذي في الخيشوم وطعمهما شيء على حدة ، وفيه لحم الخلدتين
وطعمه شيء على حدة » .

ثم ينتقل به الجاحظ نقلة أخرى في الاحتجاج فيقول :
الرأس سيد البدن ، وفيه الدماغ وهو معدن العقل ، وفيه يتفرق العصب
الذي فيه الحس ، وبه قوام البدن ، وإنما القلب باب العقل ، كما أن النفس هي
المدركة ، والعين هي باب الألوان ، والنفس هي السامعة الذائقة ، وإنما الأنف

(١) السلاء : السمن ذهب ما فيه من آثار اللبن .

والأذن بابان ، ولولا أن العقل في الرأس لما ذهب من الضربة تصيبه ، وفي
الرأس الحواس الخمس ، وكان ينشد قول الشاعر :
إذا ضربوا رأسي وفي الرأس أكرهى
وغودر عنق الملتقى ثم سائر^(١)

وهذا الاحتجاج وخصوصاً الجزء الأخير منه - والذي لا أرتاب في أن
الجاحظ قد صاغه بأسلوب وحبكة حبكة - هذا الاحتجاج لا مطعن فيه
ولا اعتراض عليه ولكن ما علاقة ذلك الكلام الذي يؤكد فيه أن الرأس
سيد البدن ومعدن العقل . . . إلخ ما علاقته بأكل الروعس ؟ والاقتصار عليها
دون سائر ألوان اللحم ؟ لا شك أنه ضرب من السفسطة وقلب الحقائق هروبا
من المواجهة الجديّة الصحيحة .

وهذه الظاهرة بعينها نراها في وصية أبي عبد الرحمن لابنه في يوم الروعس
قد كان يقول له بعد أن يقمده معه على الخوان وقبل أن يأكل كلاً ما كثيراً
معه : أى بنى عود نفسك الأثرة ومجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهش نهش
الأفاعى ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدم الأكل لإدامة الفعاج ولا تلقم لقم
الجمال . . . إن الله قد فضلك فجعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سباعاً ،
واحذر سرعة السكطة^(٢) وسرف البطنة . . . واعلم أن الشبع داعية البشم ، وأن
البشم داعية السقم ، وأن السقم داعية الموت ، ومن مات هذه الميتة مات ميتة
لثيمة . . . إلى آخر ما قال^(٣) وهى أقوال وتقريرات تعد من قبيل الحقائق

(١) البخلاء ص ١٠٧ .

(٢) السكطة - بكسر الكاف - : البطنة ، وشيء يمتري من امتلاء الطعام .

(٣) البخلاء ص ١٠٩ .

والمسلّمات التي لا يمارى فيها أحد، غير أن وجه الحيلة فيها أن تساق تدليلاً على صواب وجهة ذلك البخيل المقتر، ومن قال له إن الاعتدال في الإنفاق على نفسه وأهله سيقوده إلى ما ذكر من التخنم والبشم؟ ويتدرج في الاحتجاج المضحك إلى أن يرتقى بالقضية إلى الموت والهلاك.

وقد يكون مصدر الواقعية في الحوار راجعاً إلى حشد الأقوال السائرة والأشعار الدائمة والاستشهاد بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال الحكماء والقادة وأهل الرأي.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في رسالة أبي العاص بن عبد الوهاب إلى الثقفى والتي ذم إليه فيها مذهبه في البخل، وحل على تفضيله كلام البخلاء، واستطرد من ذلك إلى أن قال^(١):

«... والشاعر أبصر بكم حيث يقول:

فإن سمعت بهلك للبخل فقل بعداً وسحقاً له من هالك مودى
تراثه جنة للوارثين إذا أودى وجثامه للتراب والدود

وقال آخر:

تبلى محاسن وجهه في قبره والمال بين عدوه مقسوم

ثم يسوق شيئاً من أقوال الأولين فيقول:

« ولقد قال معاوية: « من لم يكن من بنى عبد المطلب جواداً فهو حميل^(٢) »

(١) البخلاء ص ١٥٥ وما بعدها.

(٢) الحميل - كأمير - : الدعى الغريب.

ومن لم يكن من آل الزبير شجاعاً فهو لزيق^(١) . . . وقال ابن أبي بردة :
لولا شباب قتيب وسفهاؤهم ما كان لأهل البصرة مال . . . وذكروا النبي
صلى الله عليه وسلم فقالوا : لم يضع درهماً على درهم ولا لبنة على لبنة ، وملك
جزيرة العرب فقبض الصدقات ، وجبت له الأموال ما بين عذار العراق ،
إلى شجر عمان ، إلى أقصى مخاليف اليمن ، ثم توفي وعليه دين ، ودرعه مرهونة ،
ولم يسأل حاجة قط فقال : لا . وكان إذا سئل أعطى ، وإذا وعد أو أطمع
كان وعده كاملياً وإطاعه كالإنجاز .

وقال للأنصار : من سيديكم ؟ قالوا : جدّ بن قيس على أنه يزن^(٢) فينا
بيخل . قال : وأى داء أدوى من البيخل ! فجعله داء ثم جعله من أدوى
الأدواء . وقال : السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان . وقال : إن الله
جواد يحب الجود .

وهكذا يفيض أبو العاص في إيراد الأحاديث الشريفة ، والأقوال الحكيمة
والأشعار التي تدم البيخل والبخلاء .

وهذه الظاهرة نجدتها أيضاً في رد ابن التوأم على الرسالة المتقدمة لأبي العاص
ينقض عليه ما أورده فيها ، ويعارض ما استند إليه من أدلة بشواهد أخرى
يسوقها على هذا النحو يقول^(٣) :

« فإن كنتم الشعراء تفضلون ، وإلى قولهم ترجعون ، فقد قال الشاعر :
قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير على الفساد

(١) الذي لُزق بنسب قوم وليس منهم .

(٢) يزنهم .

(٣) البخلاء ص ١٨١ وما بعدها .

وقد قال الشماخ بن ضرار :

لـمـال المـرم يـصلـحـه فيـفـقـى مـفـاقـره أعـف مـن القـنـوع

وقال أبو العتاهية :

أنت ما استغنيت عن صا حبك الدهر أخوه
فإذا احتجت إليه ساعة بحبك فوه

وقال عروة بن الورد :

ذري للغنى أسمى فإني رأيت الناس شرهم الفقير
وأبهم وأهونهم عليهم وإن أسمى له حسب وخير
ويقصيه الندى وتزدريه حائلة وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ولكن الغنى رب غفور

ثم ينتقل إلى الاحتجاج بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

« ... وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسهاكم عن قيل وقال ،
وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » ، وقال : « خير الصدقة ما أبقت غنى ،
واليد العليا خير من اليد السفلى ، وأبدأ بمن تقول » .

وهكذا يطوف بنا الجاحظ مع تلك النوعية من « بخلائه » وهي نوعية
« المتعاقلين » ليمتع عقولنا بمفاظراتهم ومطارحاتهم التي يستبين منها مقدرة
الجاحظ على التفنن في أساليب الاحتجاج ، بما يبرز طابع العقلية الجاحظية
التي مرت على ذلك النمط من التفكير ، والتي ألفت أن نحتج للشيء وانضده
في نفس الوقت .

ولا يخفى أن هذه الشواهد والاستدلالات تعد من أهم دعائم الجدية الشكلية،
التي غدا معها موضوع البخل والبخل، زائراً بالحيوية مثيراً الجدل والنقاش،
يشتهر فيه البخل مع من يعيبونهم ويذمون مذهبهم .

٢ — غرابة الأخبار وطرائقها :

والجاحظ أبو هذا الفن وفارس تلك الحلية ، وذلك لسعة معارفه ، وتنوع
ثقافته ، وشمول رواياته ، وكثرة ما اطلع عليه من كتب ، وما حصله من
أخبار وغرائب بمخالطته للرواة وأهل العلم على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم .

رأى أن يباين شغوف بالتريف النادر، مشوق لسماع الغريب غير المألوف ،
وقد أجاد الجاحظ في إمتاع قارئ البخل ، وأشبع نهمه إلى هذا النوع من
الطرائف ، وتلك إحدى مقومات الفكاهة في البخل ، ومن أمثلة ذلك
ما حكاه الجاحظ عن بخل أهل مرو ، قال ^(١) :

قال تمامة : لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لا يلفظ ، يأخذ الحبة بمقاروه
ثم يلفظها قدّام الدجاجة ، إلا ديكة مرو ، فإنى رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج
ما في مناقيرها من الحب . قال : فعلت أن يخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر
الماء ، فمن ثم عمّ جميع حيوانهم .

قال الجاحظ : فحدثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد فقال : كنت عند
شيخ من أهل مرو ، وصحبني له صغير يلعب بين يديه ، فقلت له : إماماً عابثاً ،
ولمّا ممّتحناً : أطعمني من خبزكم . قال : لا تريد ، هو مرّ . فقلت : فاسقني
من مائسكم . قال : لا تريد ، هو مالح . قلت : مات لي من كذا وكذا .
قال : لا تريد ، هو كذا وكذا . إلى أن عدت أصداقاً كثيرة ، فخل ذلك

يمنعني ويمنعه إلى ، فضحك أبوهم وقال : هذا من علمه ما تسمع ؟ يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطينتهم .

ويحدث الجاحظ عن نفسه يقول^(١) :

ورأيت أنا حمارة منهم ، زهاء خمسين رجلاً ، يقفدون على مباقل بحضرة قرية الأعراب ، في طريق الكوفة ، وهم حجاج ، فلم أر من جميع الحسين رجلاً يأكلان معاً ، وهم في ذلك مقاربون ، يحدث بعضهم بعضاً ، وهذا الذي رأيته منهم من غريب ما يتفق للناس .

ويحكي الجاحظ من طرائف أبي القاسم نوادر غريبة ، وحكايات طريفة منها^(٢) : أنه تمشق واحدة ، فلم يزل يمسكها ، ويبكي بين يديها حتى رحمته ، وكانت مكثرة وكان مقلاً . فاستهداها هريسة ، وقال : أتم أحذق بها ، فلما كان بعد أيام تشهى عليها رءوساً ، فلما كان بعد قليل طلب منها حيسة^(٣) ، فلما كان بعد ذلك تشهى عليها طفيشيلة^(٤) ، قالت المرأة : رأيت عشق الناس يكون في القلب وفي الكبد وفي الأحشاء ، وعشقك أنت ليس يجاوز معدتك .

ومنها أيضاً :

أنه ألح على قوم عهد الخطبة إليهم ، يسأل عن مال المرأة ويحصيه ويسأل

(١) المرجع السابق والصفحة .

(٢) البخل ص ١٢٤

(٣) الحيس : خليط من التمر واللبن المخض والسمن يصنع على نحو خاص .

(٤) الطفيشيل : نوع من الرق ، فالطفيشيلة طعام يعمل بهذا الرق .

عنه ، فقالوا : قد أخبرناك بما لها ، فأنت أى شيء مالهك ؟ قال : وما سؤالكم
من مالى ؟ الذى لها يكفينى ويكفيها ١١

وينقل الجاحظ عن بعض رواة أنه قال :

كان عندنا رجل من بنى أسد ، إذا صعد ابن الأكار إلى نخلة له ، ليلقط له
رطباً ملاً فاه ماء - حتى لا يستطيع أن يأكل شيئاً مما يلقطه وهو بأعلى النخلة -
فسخروا به وقالوا له : إنه يشربه ويأكل شيئاً على النخلة ، فإذا أراد أن ينزل
بال فى يده ، ثم أمسكه فى فيه . . . قال : فكان بعدها يملأ فاه من ماء أصفر
أو أخضر ، لكيلا يقدر على مثله فى رءوس النخل (١) .

وفى قصة أبى سعيد الدائنى الذى يذكر عنه الجاحظ أنه كان إماماً فى البخل
عند أهل البصرة وأنه كان من كبار المعينين ومياسيرهم ، وكان شديد العقل ،
شديد المعارضة حاضر الحجة ، بعيد الروية .

وكانت له حلقة يقعد فيها أصحاب العيفة والبخلاء الذين يتذاكرون الإصلاح
فبلغهم أن أبى سعيد يأتى الخريبة فى كل يوم ليقضى رجلاً هناك خمسة دراهم
فضلت عليه ، وقالوا : هذا خطأ عظيم وتضييع كثير ، وإنما الحزم أن يتشدد فى
غير تضييع ، وصاحبنا هذا قد رجع على نفسه بضروب من البلاء .

فاجتمعوا عليه على طريق التفرغ والاستفادة منه ، قالوا : نراك تصفع شيئاً
لا نعرفه ، والخطأ منك أعظم منه من غيرك ، قد أشكل علينا هذا الأمر
فأخبرنا عنه ، فقد ضاقت صدورنا به ، خبرنا عن مضيك إلى الخريبة لتعقضى

خمسة دراهم ، فواحدة أنا لا نأمن عليك انتقاض بدنك وقد خلا من سنك ،
وأن تمقل فتدع القاضى للكثير بسبب القليل .

وثانية أنك تفصب هذا الفصب ، فلا بد لك من أن تزداد في العشاء إن
كنت ممن يعمشى ، أو تغمشى إن كنت ممن لا يتمشى ، وهذا إذا اجتمع كان
أكثر من خمسة دراهم ، وبمد فأبك تحتاج أن تشق وسط السوق ، وعليك
ثيابك ، والحمولة^(١) تستقبلك ، فمن ههنا نتره ومن ههنا جذبة ، فإذا الثوب قد
أودى ، ومن ذلك أن نعلك تنقب وترق وساق سراويلك تنسخ وتبلى ،
ولعلك أن تعثر في نعلك فتقدمها^(٢) قدًا ، ولعلك تهترها^(٣) هرتًا ، وبمد فاقضاء
القليل أدى بك إلى هذا وما بلغت منه شيئًا ، وإنك أفضل ، إلا أنا نحب أنك
تجلى عن الأمر بشيء فليس كلنا يثق لك بالصواب في كل شيء .

قال أبو سعيد : أما ما ذكرتم من انتقاض البدن ، فإن الذى أخاف على
بدنى من الدعة ، ومن قلة الحركة أكثر ، وما رأيت أصح أبدانا من الخمالين
والطرافين . يقوم قبل أن يموتوا لم يكن همهم . وإنما أقمت في المنزل
لبعض الأمر ، فأكثر الصعود والنزول خوفا من قلة الحركة ، وأما
بالبعيد عن القريب ، فإني لا أعرض للبعيد حتى أفرغ من القريب ، وأما
ما ذكرتم من الزيادة في الطعام فقد أيقفت نفسي واطمأن قلبي على أنه ليس لنفسى
عندى إلا ما لها ، وأنها إن حاسبتنى أيام الفصب حاسبتها أيام الراحة فسقط
حينئذ أن أيام الخريبة من أيام ثقيف ، وأما ما ذكرتم من تلقى الحمولة ومن النثر
والجذب ، فأنا أقطع عرض السوق من قبل أن يقوم أهل السوق لصلاتهم ،

(٢) تقدمها : تقطعها .

(١) الحمولة : الدواب المحملة .

(٣) تهترها : تمزقها .

ثم يكون رجوعى على ظهر السوق^(١) ، وأما ما ذكرتم من شأن الفعل والسرائيل ، فإني من لدن خروجي من منزلي ، إلى أن أقرب من باب صاحبي ، فلما نعلي في يدي ، وسراويلي في كفي ، فإذا صرت لآليه ابستهما ، فإذا فصلت من عنده خلعتهما . فهما في ذلك اليوم أودع أبدانا وأحسن حالا . ثم خاطبهم قائلا :

بقي الآن اسكنم ما ذكرتم شيء ؟ قالوا : لا . قال : فما هنا واحدة تفي بجميع ما ذكرتم . قالوا : وما هي ؟ قل : إذا علم القريب الدار ومن لى عليه ألوف الدنانير ، شدة مطالبتى للبعيد الدار ومن ليس لى عليه إلا الفلوس - أتى بحق ولم يطعم نفسه فى مالى . وهذا تدبير يجمع لى إلى رجوع مالى طول راحة بدنى . ثم أنا بالخيار فى ترك الراحة لأتى أقسمها على الأشغال حينئذ كيف شئت . وأخرى أن هذا القليل لو لم يكن فضلة من كثير ، وموصولا بدين لى مشهور ، لجاز أن أنجافى عنه . فأما أن أدع شيئا يطعم فى فضول ما يبقى على الغرماء ، فهذا ما لا يجوز . فقاموا وقالوا بأجمعهم : لا والله لا سألناك عن مشكلة^(٢) ! وموطن الغرابة والطراوة فى هذه القصة أننا نطلع من خلالها على أن منتفعلى البخل وتثمير السال كان لهم ما يشبه « الرابطة » يلتقى أعضاؤها ليتدارسوا فيما بينهم شئون طائفتهم ، وينظروا فيما يعود بالنفع على عصبتهم ، وربما وقع الجدال بينهم واحتد النقاش حول مسالك واحد من المنتمين إلى رابطتهم حتى ولو كان ذلك « الواحد » يشبه أن يكون موضعه بينهم موضع الإمام كآبى سعيد المدائنى .

هذا إلى أن موضوع الحوار الذى أشر كنا الجاحظ فى مقابته أدخل فى الغرابة

(١) يقصد من طريق خاف الوق لیس به زحام

(٢) البخلاء ص ١٣٨ - ١٣٩

والتشويق ، لأنه يعكس اهتمام أولئك القوم بمسألة أبي سعيد و « استجوابه »
لما بدر منه من تضییع ، فيتصدى لهم المدائن مبيناً وجهته في ذلك التدبير ،
وينفى ما نسبوه إليه من تضییع حتى يتيقن أصحابه في نهاية الأمر أنه أبعد
نظراً وأصوب تدبيراً مما ظنوا .

ويصف الجاحظ بمخل « النزال » فيقول :

« وكان الغزال أعجوبة في البخل وكانت له قطعة أرض أكرى نصفها من
سماك ، وكان يحيى من منزله ومعه رغيف في كفه ، فكان أكثر دهره يأكله
بلا آدم ، فإذا أعيا عليه الأمر أخذ من ساكنه جوافة^(١) بحبة وأثبت عليها
فلساً في حسابها ، فإذا أراد أن يتصدى أخذ الجوافة فمسحها على وجه الرغيف ،
ثم عض عليه ، وربما فتح بطن الجوافة فيطن جنبها ، ويطها باللقمة بعد اللقمة ،
فإذا خاف أن ينهكها ذلك وينضم بطنها ، طلب من ذلك السماك شيئاً من ملح
السماك فحشا جوفها لينفخها ، وليوم أن هذا هو ملحها الذي ملحت به ،
ولربما غلبته شهوته فكدم طرف أنفها ، وأخذ من طرف الأرنبة ما يسفيغ به
لقمته ، وكان ذلك منه لا يكون إلا في آخرها لقمة ليطيّب فمه بها ، ثم يضعها
في ناحية ، فإذا اشترى من امرأة غزلاً أدخل تلك الجوافة في ثمن الغزل ، من
طريق إدخال العروض وحسبها عليها بفلس ، فيسترجع رأس المال ،
ويفضل الأدم^(٢) .

(١) الجوافة : نوع من السمك ، وليس من جيده ، ويدل سياق القصة على
أنها مملحة .

(٢) يفضل الأدم : أى يربح الاتئدام وهو ما يأكل به رغيته ، والقصة في
البخلاء ص ١٢٠ .

وهي تعتمد على قلب الحقيقة ، أو الاحتمال لفهمها على نحو غير صحيح بغية التخلص من مأزق محرج ، أو الاسترسال في الاحتجاج الباطل من قبل البخيل الذي يهمله أن يظهر للناس بمظهر معقول ، وينفي عن تصرفاته شبهة الشذوذ ، ومن شواهد تلك المغالطات في كتاب البخلاء ما حكاه الجاحظ عن أحد رواته فقال :

« كان عندنا رجل مقلّ ، وكان له أخ مكثّر ، وكان مفرط البخل ، شديد الفجج ، فقال له يوماً أخوه : ويحك ! أنا فقير معيل ، وأنت غني خفيف الظهر ، لا تعينني على الزمان ، ولا تواسيني ببعض مالك ، ولا تتفرّج لي عن شيء ؟ والله ما رأيت قط ولا سمعت بأجل منك . قال : ويحك ! ليس الأمر كما تظن ، ولا المال كما تحسب ، ولا أنا كما تقول في البخل والبسر ، والله لو ملكت ألف ألف درهم لو هبت لك منها خمس مائة ألف درهم ، يا هؤلاء فرجل يهب ضربة واحدة خمس مائة ألف يقال له بخيل ١٩ »^(١).

ويشبه هذا ما حكاه الجاحظ عن الحزامي وهو ينقصر لمذهبه في البخل ، ويرد على الأقوال السائرة التي يرددها أنصار الجود ودعاة السخاء فيقول : « ويقولون : « ثوبك على صاحبك أحسن منه عليك » . فما يقولون إن كان أقصر مني أليس يتخيل في قميصي ؟ وإن كان طويلاً جداً وأنا قصيراً جداً فليسه أليس بصير آية للسائلين ؟ فمن أسوأ أثراً على صديقه ممن جملة ضحكة للغاس ؟ ما ينبغي أن أكسوه حتى أعلم أنه فيه مثلي ، ومتى يتفق هذا ، وأنى ذاك محيا وممات ١٩ »^(٢).

(١) البخلاء ص ١٩٥ .

(٢) البخلاء ص ٦١ .

وقد تأتي المغالطة نتيجة للمبالغة في التصوير الساخر كالذي يصنعه الجاحظ ، وهو يعرض علينا صوراً من بخل أهل مرو ، وهي صور لا تخلو من المبالغة التي تصل في بعض الأحيان إلى المغالطة الباطلة ، والألاعيب العقلية المروّجة ، إلا أن الفاس يتقبلونها ويندرون بها على أساس أنها ضرب من اللهو البريء والقفـكه المباح .

مثال ذلك ما حكاه الجاحظ عن واحد من رواة قال :

« ناس من المرازمة إذا لبسوا الخفاف في السقة أشهر التي لا ينزعون فيها خفافهم ، يعيشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر ، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة الأشهر مخافة أن تنجرد فقال خفافهم أو تنقب » (١) .

وعنصر المغالطة واضح في هذه القصة على الرغم من إعجابنا بها لطرائقها وغرائبها ، إلا أننا عند التأمل نجد أنها بعيدة عن المعتقد ، ولو أننا تصورنا أناساً يعيشون على صدور أقدامهم مرة ، ثم على أعقاب أرجلهم مرة أخرى ، لما استطعنا أن نصدق أن هؤلاء يمكن أن يعيشوا في دنيا الفاس ، ويمحبون حياة الأسوياء ، إلا أن يكونوا أعضاء في مجموعة من « المهرجين » في إحدى دور اللهو .

(١) البخلاء - ص ٢٨ .

فسكاهاات شتى :

ويبقى بعد أن طوفنا مع موضوعات الفكاهة عهد الجاحظ وألمنا بأسلوب معالجته لكل موضوع - تبقى فسكاهاات وطرائف أخرى متنوعة نثرها في كتبه ورسائله مما لا يدخل ضمن الفروعيات السالفة التي لاحظنا أنها استحوذت على اهتمامه وشغلت حيزاً كبيراً في أدبه الفكاهي .

وتشمل الطرائف التي لم نتحدث عنها بعض الفكاهات التي حكها الجاحظ عن نفسه ، كما تشمل فسكاهاات متنوعة تحمل في طياتها إشارات ذات دلالات قوية ، إذ تلمس مشكلات اجتماعية وفكرية ، وترى إلى الإصلاح عن طريق السخرية من السلوك المعوج ، أو الخلق الذميم تماماً كما فعل الجاحظ في فسكاهااته الأخرى المتعلقة بالفروعيات المتقدمة وسنلاحظ أن هذه الفكاهات التي لم نعرض لها بعد تتناول طوائف أقل بروزاً في فسكاهاات الجاحظ كالنفهاء والأدعياء ، والمتخابئين ، كما يدخل بعضها الآخر في أبواب : المحاورات الطريفة ، أو الجوابات المفحمة ، أو المفارقات الساخرة ، وبعضها من قبيل التلاعب بالألفاظ .

وإذا نحن أضفنا هذه الألوان من الفكاهات إلى تلك التي تناولناها بالتفصيل فيما سبق اتضح لنا أن الجاحظ قد تناول في كتاباته معظم ألوان الفكاهات وشتى صفوف المضحكات التي عرفها الأدب العربي^(١) .

(١) قسم الدكتور أحمد الحوفي الفكاهة - في دراسته لها - إلى أنواع : اللغلة والتفاؤل ، التناقض ، اللعب بالألفاظ ، والنهك بالميوب الجسدية ، التهمك بالميوب الخلقية والنفسية ، تهكم الشخص بنفسه ، الحذقة ، الدعابة ، التخلص الفكاهة ، ومعظم هذه الأنواع تناولها الجاحظ في فسكاهااته . راجع الفكاهة في الأدب ج ١ ص ٢٢ وما بعدها .

ومن الفكاهات التي وقعت للجاحظ وتدل على روحه المرحه ، وصبيحته
المفطورة على سخب الدعابة ، والولوع بالقادرة ، وعدم التعرج من روايتها
حتى ولو كانت تتعلق به هو شخصيا ، وتتناوله بالسخرية - من تلك الفكاهات
اخترنا ما يلي :

— ١ —

قال الجاحظ : ما أخجلني أحد إلا امرأتان : رأيت إحداها في المسكر ،
وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام فأردت أن أمازحها فقلت لها : انزلي
كل معنا افطنا ! ! سمعت أنها حتى ترى الدنيا ! !

وأما الأخرى فإنها أتتني على باب داري فقالت : لي إليك حاجة وأريد أن
تمشي معي . فممت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي وقالت له : مثل
هذا ! وانصرفت فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلى بغص وأمرتني
أن أدقش لها عليه صورة شيطان ! فقلت لها : ياسى ما رأيت الشيطان ؟ ! فأنت
بك وقالت ما سمعت ! !

— ٢ —

وقال : سألتني بعضهم كتابا بالوصية إلى بعض أصعابي فكتبت له رقعة
وختمتها ، فلما خرج الرجل من عندي فضا فإذا فيها :
« كقابي إليك مع من لا أعرفه ولا أوجب حقه ، فإن قضيت حاجته لم
أحمدك ، وإن ردده لم أذمك » .

فرجع الرجل إلى فقلت له : كأنك كتبت الورقة ؟ فقال : نعم ! فقلت :
لا يضيرك ما فيها فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص . فقال : قطع الله

يدبك ورجليك ولعنك ! فقلت : ما هذا فقال : هذا علامة لى إذا أردت أن
أشكر شخصا !

وقال : نزلت على صديق لى فلم آكل عقده لحما ، فعرضت له فقال : إني
لا أكره من اللحم منذ سمعت الحديث (إن الله يكره البيت الأحمر) فقلت :
يا أخى ، إنما أراد البيت الذى تؤكل فيه لحوم الناس بالغيبة ! فلم يؤخر حضور
اللحم من ذلك اليوم !

ويطلق الأستاذ حسن السعدوني على هذه الطرفة فيقول : « وهذه من معاني
الجاحظ وتلاعبه بالكلام حتى يعصره عن وجهه ، فإن الحديث متواتر على
الصحة ، ومهما يكن من شيء فهي من أطف الفكات »^(١).

وقال الجاحظ : كان يحضر إلى رجل فصيح من المعجم . فقلت له : هذه
النصاحة وهذا البيان ، لو ادعيت فى قبيلة من العرب لكنت لا تنازع فيها ؟
فأجابنى إلى ذلك . فجعلت أحفظه نسبا حتى حفظه وهذه هذأ^(٢) . فقلت له :
الآن لانتة علينا ! فقال : سبحان الله ! إن فعلت ذلك فأنا إذا دعى^(٣) !!
ومن الطرائف الأخرى التى أشرنا إليها والى رواها الجاحظ اخترنا الألوان
التي نعرضها مصنفة فى النوعيات التالية :

(١) أدب الجاحظ للسندوني . ص ١٦٨ ، وكذا الطرائف الثلاث للندمة .

(٢) هذا الحديث هذا : سرده سردا مع الإسراع .

(٣) ج : لأدباج ١٦ ص ٩٤

جوابات مضحكة :

— كان رجل يقود أعمى بكراء ، وكان الأعمى ربما عشر العشرة ، ونسب للنسبة ، فيقول : اللهم أبدل لي به قائداً خيراً منه ا قال : فقال القائد : اللهم أبدل لي به أعمى خيراً منه^(١) ! !

— وقيل لمزيد : ابصر لك أن عندك قدينة شراب . قال : يا ابن أم من يسره دخول النار بالحجاز^(٢) ١٩

— خفف أشعب الصلاة مرة . فقال له بعض أهل المسجد : خففت صلاتك حداً . قال : لأنه لم يخاطبها رياء^(٣) !

— وقال الأصمعي : قال رجل من أهل المدينة لامرأته : لا جزاك الله خيراً ، فإنك غير مرعية ولا مبقية ! قالت : لأنا والله أرمي وأبقى من التي كانت قبلي ! قال : فأنت طالق إن لم أكن كنت آتيها بحرارة فتطبخ منها أربعة ألوان وتشوي جنبها ! فرفعته إلى القاضي . فجعل القاضي يفكر ويطلب له الخروج . فقال للقاضي : أصلحك الله ! أأشككت عليك المسألة ؟ هي طالق عشرين^(٤) !

— وقال الجاحظ : وقد روينا في الملح أن رجلاً قال لصاحب له : أبوك الذي جهل قدره ، وتمدى طوره ، فشق العصا ، وفارق الجماعة ، لا جرم لقد هزم ثم أسر ثم قتل ثم صلب ! قال صاحبه : دعني من ذكر هزيمة أبي ومن أسره وقتله وصلبه . أبوك هل حدث نفسه بشيء من هذا قط^(٥) ١٩

(٢) الحيوان ج ٥ ص ١٩٢

(١) الحيوان ج ٣ ص ٣٠

(٤) الحيوان ج ٥ ص ٥٦٧

(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٣٤

(٥) الحيوان ج ٢ ص ١٠١

— قيل لزهان : ما تقول في خزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث^(١) !
 — مرة ابن أبي علقمة بمجلس بنى فاجية فكبا حماره لوجهه ، فضحكوا
 منه ، فقال : ما يضحكم ؟ رأى وجوه قريش فسجد^(٢) !
 — قدّم رجل من النحويين رجلاً إلى السلطان في دين له عليه ، فقال :
 أصلح الله الأمير ، لي عليه درهمان ، فقال خصمه : لا والله أيها الأمير إن هي
 إلا ثلاثة دراهم ، ولكن لظهور الإعراب ترك من حقه درهما^(٣) !
 — جاء رجل إلى رجل من الوجوه فقال : أنا جارك وقد مات أخى فزلى
 بكفن . قال : لا والله ما عندي اليوم شيء ، ولكن تعمدنا وتعود بعد أيام
 فسيكون ما تحب ! قال : أصلحك الله ، فمأمله إلى أن يقيس عندكم
 شيء^(٤) !

غرائب وطرائف :

وكان « كلاس » و « مقلّاس » أخوين ، أحدهما أيمن والآخر أعسر ،
 فكان الأيمن يفخر على الأعسر ، فأخذا في سرقة فقطعت أيديهما ، فكان
 الأيمن لا يستطيع أن يعمل بيده ، وكان الأعسر يعمل بيده المسراة أعماله
 كلها على صحته وعادته ، ففخر الأعسر على الأيمن بذلك . فقال الأيمن :
 ما علمت للأيسر فضيلة إلا أن يسرق فيؤخذ فقطع يمينه^(٥) !

- (١) البيان والتبيين ج ١ ص ٩
- (٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٥
- (٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٨
- (٤) المرجع السابق ج ٤ ص ١١
- (٥) البرصان والبرجان للجاحظ ص ٣٥٣

— قال الجاحظ : ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدمين ، والمقدمين في الخواص : خالد بن صفوان الأهتمي ، . . . كان عند أبي العباس أمير المؤمنين ، وكان من ستماره وأهل المنزلة عنده ، ففخر عليه فاس من بلحات بن كعب^(١) ، وأكثروا في القول ، فقال أبو العباس : لم لا تقتلتم يا خالد ؟ فقال : أخوال أمير المؤمنين وأهله . قال : فأنتم أعمام أمير المؤمنين وعصبة فقل . قال خالد : وما عسى أن أقول لقوم كانوا بين ناسج برد ، ودابع جلد ، وسائس قرد ، وراكب مرد^(٢) . دل عليهم هدهد ، وغرقهم فأرزة ، وملكهم امرأة^(٣) ! ! !

— كان رجل بالبصرة له جارية تسمى « ظمياء » فكان إذا لدغها قال : يا ظمياء بالضاد ، فقال ابن المقفع : قل : يا ظمياء . فنادها : يا ظمياء ، فلما غير عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثا قال له : هي جاريتي أو جاريتك^(٤) ؟ !

تفاضل :

— قالوا لأبي الأصم بن ربيع : أما تسمع بالعدو وما يصنعون في البحر ؟ فلم لا تخرج إلى قتال العدو ؟

قال : أنا لا أعرفهم ولا يعرفونني فكيف صاروا إلى أعداء^(٥) ! ! ؟

(١) هم من عرب اليمن كما يتضح من سياق القصة .

(٢) المرد - بالفتح - : الحمار .

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٣٩

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢١١

(٥) المرجع السابق ج ٤ ص ١٩

— قال الجاحظ : مرض فقي عندنا ، فقال له عمه : أى شىء نشتهي ؟ قال :
رأس كبشين . قال : لا يكون ! قال : فرأسى كبش^(١) !

مفارقات :

— قال أبو عمرو المدينى : لو كانت البلياً بالحصص ما نالتى كما نالتى :
اختلفت الجارية بالشاة إلى التّياس اختلافاً كثيراً ، فرجعت الجارية حاملاً
والشاة حائلاً^(٢) ! !

من طرائف الفقهاء :

— كان رجل فى الجاهلية معه محبّس يتناول به متاع الحاج سرقة .
فإذا قيل له سرقت . قال : لم أسرق وإنما سرق محبّسنى ! فقال حماد بن سلمة :
لو كان هذا اليوم حياً لكان من أصحاب أبى حنيفة^(٣) !

— سئل حفص بن غياث عن فقه أبى حنيفة فقال : أعلم الناس بما لم يكن
وأجهل الناس بما كان^(٤) ! !

وواضح أن المقصود من القصة الأولى التمريض بمذهب أبى حنيفة وأصحابه
من حيث كثرة التخريجات والتأولات ، أما المقالة الأخرى فتستخرج من المغالاة

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤١

(٢) الحيوان ج ٣ ص ٤٦٩

(٣) الحيان ج ٣ ص ١٨

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٣٤٧

في المسائل الافتراضية التي اشتهر بهما أبو حنيفة ورفاقه واعتدوها مظهراً
للممكن من فهم المسائل والتمييز بين المشتبهات منها .

— قال رجل من فقهاء المدينة : من عندنا خرج العلم . فقال ابن شبرمة :
نعم ثم لم يكن يرجع إليكم^(١) .

— قال الجاحظ : حدثني أبان بن عثمان قال : قال ابن أبي ليلى : إني
لأسير رجلاً من وجوه أهل الشام ، إذ مرّ بحال معه رمان ، فتناول رمانة
فجعلها في كفه . فمضيت من ذلك ، ثم رجعت إلى نفسي وكذّبت بصري ،
حتى مرّ بسائل فقير ، فأخرجها فناوله إياها . قال : فعلت أئى رأيتها ،
فقلت له : رأيتك قد فعلت عجباً . قال : وما هو ؟ قلت : رأيتك أخذت
رمانة من حال وأعطيته سائلاً ؟ قال : وإنك بمن يقول هذا القول ؟
أما علمت أئى أخذتها وكأفت سيئة ، وأعطيته فكانت عشر حسنات ؟
قال : فقال ابن أبي ليلى : أما علمت أنك أخذتها فكانت سيئة وأعطيته
فلم تقبل منك^(٢) ؟

مخرقات :

— دخل كردم الذراع أرض قوم يذرعها ، فلما انتهى إلى زنقة^(٣)
لم يحسن يذرعها قال : هذه ليست لكم ! قالوا : هي لنا ميراث وما يفازعنا
فيها إنسان قط . قال : لا والله ما هي لكم . قالوا : فحصل لنا حساب

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٣٧

(٢) الحيوان ج ٣ ص ١٧ .

(٣) الزنقة - بالتحريك - : السكة الضيقة فيها التواء .

ما لا تشك فيه . قال : عشرون في عشرين مائتان . قالوا : من أجل هذا الحساب صارت الزنقة ليست لنا^(١) ؟ !

— دخل شاب من بنى هاشم على المنصور ، فسأله عن وفاة أبيه فقال : مرض أبى - رضى الله عنه - يوم كذا ، ومات - رضى الله عنه - يوم كذا ، وترك - رضى الله عنه - من المال كذا ، ومن الولد كذا ، فأنتموه الربيع (حاجب المنصور) وقال : بين يدي أمير المؤمنين توالى الدعاء لأبيك ؟ فقال الشاب : لا أومك ؛ لأنك لم تعرف حلاوة الآباء^(٢) . ١١

— قال الجاحظ : حدثني شعثون الطبيب قال : كنت يوماً عند ذى اليمينين طاهر بن الحسين ، فدخل - أ - أبو عبد الله الروزى فقال طاهر : يا أبا عبد الله منذ كم دخلت العراق ؟ قال : منذ عشرين سنة ، وأنا صائم منذ ثلاثين سنة ، قال : يا أبا عبد الله سأفالك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين^(٣) . ١١

الفكاهات العاربة :

وهي التي يقطنى راويها أو كاتبها إلى التصريح بذكر العورات والحديث عنها بأسلوب مكشوف . وهذا اللون قليل في فكاهات الجاحظ وإن يكن يتطلب أن نخضع بكلمة طاملاً أننا بصدد بحث فكاهاته عامة .

ومع أن هذه الظاهرة مألوفة في كتابات الأقدمين ، فإن تورط الجاحظ فيها لم يصل به إلى حد الوقاحة المنبوذة أو الإسفاف المرذول . هذا . إلى أنه .

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٤٥

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٨

(٣) الحيوان ج ٣ ص ٧

لم يبد ميلا إلى هذا اللون ، ولم يكن مولعا بروايته ، وإنما كان يسوقه عرضا .. ونستطيع أن نقرر أن معظم ما نشره الجاحظ في كتاباته من تلك النوعية ذو طابع خاص ، بحيث يحسن القارىء أنه لم يذكره عبثا ، وإنما يشير إلى ظاهرة من الظواهر الشاذة ، أو ليصور مسلك واحد من أوائك المنحرفين .

ويمكننا أن نلمح من ثغايا تلك الفكاهات العارية عقلية الجاحظ المتحررة . التي تعالج القضايا بموضوعية ، فتراه ينظر إلى الظواهر الشاذة نظرة تأمل ، على الرغم من تخرج بعض الناس منها ، وإظهارهم التمزق عند ذكرها .

ولعل دعاة « الأدب المكشوف » و « الصراحة الجنسية » - إن صح هذا التعبير الأخير - لم يبلغوا من تحقيق دعاوهم ما بلغه الجاحظ وجعله سلوكا عمليا في فكاهاته التي من هذا القبيل . وتجدر الإشارة إلى أن الجاحظ قد عرض لهذا الموضوع في كتاب « الحيوان » فقال - بعد أن ذكر طائفة من الطوائف العارية - :

« وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر الـ .. ، .. ، ارتدع وأظهر التمزق ، واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبيل والوقار ، إلا بقدر هذا الشكل من التصنع »^(١) .

ثم يقول بعد ذلك بقليل :

« وبعد . فلو لم يكن لهذه الألفاظ^(٢) مواضع استعمالها أهل هذه اللغة وكان الرأي ألا يلفظ بها . لم يكن لأول كونها معنى إلا على وجه الخطأ ، ولما كان في الحزم والصون لهذه اللمة أن ترفع هذه الأسماء منها »^(٣) .

(٢) يقصد أسماء للمورات .

(١) الحيوان ج ٣ ص ٤٠

(٣) المرجع السابق ص ٤٣

وفي اعتقادي أن الجاحظ لا يهدف بهذا الكلام إلى إباحة التصريح بالمعورات وتداول الألفاظ الدالة عليها صراحة - لا كناية - في كلام الناس حولها . وإنما يقصد الرد على الذين عابوا عليه صنيعة بإيراد الطرائف المكشوفة . وهذا - الاعتقاد - مني ليس من قبيل الدفاع عن الجاحظ ، وليس - أيضاً - من قواع - كما يقولون - وإنما مرجعه إلى أن ثمة تفاقضاً ظاهرياً في موقف الجاحظ من هذه القضية ؛ وذلك لأنه قبل أن يذكر هذا الكلام الذي نقلناه عنه بقليل بصرح - بعد أن روى طوائف عارية - بقوله :

« وقد تسخفنا في هذه الأحاديث ، واستعجزنا ذلك بما تقدم من العذر »^(١) . وهو يقصد بالعذر المتقدم استنشاط القارئ بالهزل وإخراجه من سياق الجد ، الذي عرضنا له في فلسفة الفكاهة عنده .

وفي موضع آخر من « الحيوان »^(٢) تراه يقول :

« وسنذكر لك باباً من السخف ، وما تسخف به لك ، إذ كان الحق يشغل ولا يحف إلا بعمى الباطل » . ثم يسوق شعراً مكشوفاً لأبي نواس .

وإذا فالجاحظ يدرك أن رواية هذه الفكاهات العارية سخف وباطل ، بل بصرح بأنه يتكلف ذلك السخف ويمتدح للقارئ منه . فإوجه الصواب في موقفه ؟

أقول : إن عبارته الأولى يقصد منها الرد على من يعيبون الخوض في هذه

(١) الحيوان ج ٣ ص ٣٨

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ١٧٨

الأحاديث على الإطلاق ويبالغون في إظهار القاذى بها ، وهو في ذات الوقت يدرك أن تداول هذه الروايات وإثباتها في المكتب تسخف ومجانبة للأمثل .

وينبغي أن نشير هنا إلى أن هذه القضية تختلف في ملاساتها بالنسبة للقراء عنها بالإضافة للمحدثين . فقد كانت هذه الطوائف العارضة تقرأ وتسمع في نطاق ضيق ، وعلى مستوى محدود ، بين طائفة من الشيوخ ، ولم تكن المكتب تطيع وتتداول بمثل ما أصبح شائعاً في العصور الحديثة ، وأيضاً لم يكن للمنصر النسائي تواجد واسع النطاق في الحياة الثقافية ومن ثم فلم يكن هنا مخرج أو تخوف من رواية تلك الطوائف أو تسطيرها في المكتب .

وأكتفى هنا أن أشير إلى واحدة من طرائف الجاحظ التي تقترب من هذا اللون والتي فيها شيء من الإسفاف وذلك لأنني أشرت إليها في ثنايا حديثي عن طرائف الوعاظ والقصاص ووعدت بأن أذكرها في موضعها ، وهي نادرة تتعلق بأبي كعب القاص الذي سخر الجاحظ منه ومن أمثاله ومن هم على شاكلته من الأدعياء الجهال .

وخلاصة^(١) هذه النادرة أن أبا كعب هذا تناول نوعاً من القول وأكثر منه فاعتراه انتفاخ وقرقرة ، وكان على موعد ليلتقي بالقاس في المسجد ويقص عليهم ، فأنبرى بمد الصلاة وتوجه ناحية المحراب والإمام جالس في ناحية قريباً منه ، وأخذ أبو كعب في قصصه ، وكان كلما حاجت أعاصير بطنه تصنع للتخلص منها - وبعضها ذو صوت يسمع - فكان يتجه لسامعيه قائلاً لهم : « قولوا لا إله إلا الله وارفعوا بها أصواتكم » وذلك ليمتنى له في خلاله ذلك أن يتخلص من بلاياه . . . !!

(١) نسها في الحيوان ج ٢ ص ٢٤

وقد صُغت الطرفة بعبارة من هندی نحاشيا لذكر الألفاظ السمجة التي حكاها الجاحظ بها .

ومضمون هذه الطرفة إن يكن صحيحاً فهو شاهد على سفولة هذا النمط من القصص واستهانتها بجرمة بيوت الله ، والإساءة البالغة للعلماء وهو بهذا أهل لأن تتفاوشه الأفلام الساخرة وتداول حافاته الألسن .

وإن تسكن القصة من اختراع الجاحظ فهي أدخل في العجب وأدعى إلى الدهشة ، لما فيها من خيال محلق وتصوير دقيق ، ثم إنها - إن تسكن كذلك - لتدل على تفنن الجاحظ في إبداع الصور الساخرة التي يصنعها لآتهم من الأنماط البشرية المنحطة سلوكاً وخلقاً .

الفصل الرابع

الخصائص الفنية لأدب الفكاهة عند الجاحظ

امتلك أبو عثمان الجاحظ - كما هو معروف - ناصية البيان ، وتربع على عرش البلاغة وهو صاحب طريقة في السكتانة عرف بها ، وصارت علماً عليه ، وأخص خصائص الأسلوب الجاحظي تتمثل في توخي السهولة ، وإيثار الجملة الواضحة ، مع عناية برشاقة الأسلوب ، وهندسة العبارة ، والبراعة في إحكام البنية الأسلوبية بحيث توفى المعاني حقها ولا تفحيفها ، مع طلاقة في التعبير وغزارة في الثروة اللغوية .

ولا يعني لنا في هذا الفصل أن نكرر القول حول أسلوب الجاحظ وميزات نثره الفني ، فقد تناول الباحثون هذا الجانب وأفاضوا في شرحه ، والتنويه بمزياته - وإنما يهمنا في هذا المقام أن نتف على جملة الخواص الفنية التي تميزت بها كتابات الجاحظ الفكاهية ، وسنرى أنها فضلاً عن احتوائها على الميزات العامة المعروفة لأسلوب الجاحظ ، قد اكتسبت ميزات خاصة تتصل بطبيعة الفكاهة ، كما أنها تنطوي في معظم الأحيان على التعريض أو السخرية أو الزعم مما يجعل لها طابعاً متميزاً .

ونعرض في هذا الفصل إلى أبرز الخواص الفنية لفكاهات الجاحظ والتي نقتلخص في الجوانب التالية :

(أ) براعة الوصف ودقة التصوير .

(ب) السخرية .

(ج) واقعية اللغة .

(د) الأقصوصة الفكاهية .

* * *

أولاً : براعة الوصف ودقة التصوير

تميز الأدب الفكاهي عند الجاحظ بأنه أدب وصفي ، يعنى بالحكاية والسرد ، ويرسم للقارئ في معظم الأحيان دقائق القصة التي يحكيها ، ويعرض عليه تفاصيلها حتى يكاد يلمسها القارئ . وكأنها ماثلة أمام عينيه ، وهذه الميزة شائعة في كتابات الجاحظ الوصفية عامة وسببها ما وهبته من قوة الذكاء ، ودقة الملاحظة ، والقدرة على التعبير والتصوير بصورة تفوق الوصف .

والتصوير في أدب الجاحظ الفكاهي يتنوع إلى ألوان شتى وفنون عديدة ، منه تصوير الأشكال والمشاهد مع التركيز على إبراز عناصر المشهد المصور وزواياه المختلفة ، ومنه تصوير الحركة ، ومنه تصوير الطباع ، وبرع الجاحظ أكثر وأكثر في تجسيم الميوب ، وتصوير الرذائل على نحو ما هو معروف في فن « السكاريكاتير » وقد تتداخل هذه الألوان في لوحة واحدة فترى فيها تصويراً للشاهد ، وتعبيراً عن الحركة ، ووصفاً للطباع ، وتجيماً للميوب ، بحيث تجد نفسك أمام حشد عظيم من الأفانين والصور التي لا يفقضى مجملك منها . وربما تحرجك إذا أردت أن تحلل عناصرها ، وتفتقرس بناءها الفني إلى شرح طويل وكلام كثير .

وأداة الوصف عند الجاحظ هي العبارة الواضحة ، وعماده في دقة التصوير هو تلك الثروة اللغوية والمقدرة التعبيرية اللتان أكسبتا كتاباته حيوية وخصياً وبعثتا في صوره وأفاصيحه جواً من الواقعية التي تشعر القارئ بأنه يمايش الأحداث ويقاومها وكأنها تتم تحت سمعه وبصره وفي متناول حسه وليست من قبيل الوصف المتخيل والروايات الحكيمية .

ولا ريب أن العبارة اللغوية هي أداة الأديب التي عن طريقها يصور ويصف
نهي بالإضافة إليه تشبه المادة الغفل التي يعتمد عليها الصانع الماهر في إبراز
قدراته في حذق ما يصنع ، وهذه المادة (الخام) متاحة للأدباء على السواء وإنما
يتفاضلون في إدراكهم لدلولاتها ، وحذقهم بصياغتها على النحو الذي تؤدي
به المعنى أ كمل أداء ، وتبين عفه أحسن بيان .

والحق أن الجاحظ بدأ كأعظم ما يكون حذقا ومهارة في تطويع العبارة
لعمانية وصوره في أدبه الفكاهي الخافل بالوصف البارع والتصوير الكاشف .

ولنتأمل هذه الصورة الدقيقة التي تصور المشهد بكل جوانبه والتي رسمها
الجاحظ لشيخ من أهل خراسان من جملة البخلاء مختار منها المشهد التالي :

قال الجاحظ مصورا سلوك ذلك الشيخ وطريقته في البخل :

« كان لا يأكل إلا ما لا بد منه ، ولا يشرب إلا ما لا بد منه . غير أنه
إذا كان في غداة^(١) كل جمعة حمل معه مفديلا فيه جردقتان ، وقطع لحم
سكبا^(٢) مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرة فيها ملح ، وأخرى فيها
أشنان^(٣) وأربع بيضات ليس منها بد ، ومعه خلال . ومعه وحده ، حتى يدخل
بعض بساتين الكرخ وينظر موضعا تحت شجرة وسط خضرة وعلى ماء جار ،
فيأذا وجد ذلك جلس ، وبسط بين يديه المفديل ، وأكل من هذا مرة ومن هذا
مرة . فإن وجد قيم ذلك البستان رى إليه بدرهم ، ثم قال : اشترى لي بهذا ، وأعطاني

(١) أول النهار .

(٢) السكبا : مرق يعمل من اللحم والخل . ولعله يقصد هنا أن اللحم تم إنضاجه

بهذه الطريقة . (٣) الأشنان : نبات تمسك به الثياب والأيدي .

بهذا رطباً - إن كان في زمان الرطب، أو عنياً إن كان في زمان العنب - ... فإن
أتاه به أكل كل شيء معه، وكل شيء أتى به، ثم تخلل وغسل يديه، ثم تمشى
مقدار مائة خطوة ثم يضع جعبه فينام إلى وقت الجمعة. ثم ينتبه فيغتسل،
ويغضى إلى المسجد. هذا كان دأبه كل جمعة^(١).

وهكذا فلدح في وصف الجاحظ سلاسة العبارة ووضوحها ودقة الوصف
وشمره حتى لم يكدر يترك من عناصر المشهد شيئاً ذا بال في توضيح الصورة إلا
ألمح إليه ونبه عليه.

ومن هذا الباب أيضاً وصف الجاحظ لليلي الناعطية تلك المرأة الشحيحة
التي كانت ما تزال ترقع قيصاً لها - على حد تعبير الجاحظ - وتلبسه حتى صار
القميص الرقاع، وذهب القميص الأول، ورفرت كساءها ولبسته حتى صارت
لا تلبس إلا الرفو وذهب جميع الكساء^(٢).

وبما يدخل في باب تصوير الحركة هذه النصبة التي حكها الجاحظ عن
« أبي مازن » و « جبل العمى » قال :

وكان « جبل » خرج ليلاً من موضع كان فيه فخاف الطائف^(٣)، ولم يأمن
المستقى^(٤) فقال : لو دقت الباب على أبي مازن، فبت عنده في أدنى بيت أو في
دهليزه، ولم ألزمه من مؤنثي شيئاً، حتى إذا انصدع حمود الصبح خرجت في
أوائل المدلجين^(٥).

(١) البخلاء ص ٢٤ - ٢٥ . (٢) البخلاء ص ٣٧ .

(٣) الطائف : القدي يطوف ليلاً للحراسة .

(٤) المستقى : الذي يتبع السائر ليلاً لبسبه . (٥) المدلج : السائر في أواخر الليل .

فدق عليه الباب دق واثق ودق مدل . . . فلم يشك أبو مازن أنه دق صاحب هدية ، فنزل سريعا . فلما فتح الباب وبصر بجبل ، بهر بملك الموت ، فلما رآه جبل واجما لا يحير كلمة ، قال له : إني خفت معرة الطائف وعجلة المستقي فلت إليك لأبيت عندك ، فتساكر أبو مازن ، وأراه أن وجومه إنما كان بسبب السكر ، فنخلع جوارحه وخبل لسانه ، وقال : سكران والله . أنا والله سكران . قال له جبل : كن كيف شئت . نحن في أيام الفصل لا شتاء ولا صيف ، ولست أحتاج إلى سطح فأغم عيالك ، ولست أحتاج إلى لحاف فأكلفك أن تؤثرتي بالدفء . . . وإنما أريد أن تدعني أغني في دمليزك إغفاءة واحدة ، ثم أقوم في أوائل المبكرين . قال أبو مازن - وأرخى عينيه وفكّيه ولسانه ثم قال - : سكران والله أنا سكران ، لا والله ما أعقل أين أنا ، والله إن^(١) أنهم ما يقول . ثم أغلق الباب في وجهه ودخل لا يشك أن عذره قد وضح ، وأنه قد أطفأ النظر حتى وقع على هذه الحيلة^(٢) .

ولعلنا نلاحظ دقة تصوير المشهد بمحملته ، كما نلاحظ تصوير الحركة في وصف تساكّر أبي مازن إذ يوضح الجاحظ ذلك بقوله : فنخلع جوارحه وخبل لسانه ، ثم يقول مرة أخرى : وأرخى عينيه وفكّيه ولسانه - وهي صورة دقيقة لمن يلم به السكر .

ومن دلائل الدقة في الوصف وشموله هذه الصورة التي رسمها الجاحظ لأهل صرو قال :

« وزعموا أنهم ربما تراققوا وتزاملوا ، فتناهدوا^(٣) وتلازموا في شرام

(١) إن في هذا السياق نافية .

(٢) للبخلاء من ٢٩ .

(٣) تناهدوا : تراققوا .

اللحم ، فإذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ ، وأخذ كل إنسان منهم نصيبه فشكه بخوصة أو بخيط ، ثم أرسله في خل القدر والتوابل فإذا طبخوه تناول كل إنسان خيطه وقد حله بملامة ، ثم اقتسموا المرق ، ثم لا يزال أحدهم يسأل من الخيط القطعة بعد القطعة . حتى يبقى الحبل لشيء فيه ، ثم يحممون خيوطهم . فإن أعادوا للملازمة أعادوا تلك الخيوط ، لأنها قد تشربت الدسم فقد رويت . وليس تناهد من طريق الرغبة في المشاركة ، ولكن لأن بضعة كل واحد منهم لا تبلغ مقدار الذى يحتمل أن يطبخ وحده ، ولأن المؤنة تخف أيضا والخطب والخل والثوم والتوابل . ولأن القدر الواحد أمكن من أن يقدر كل واحد منهم على قدر ، وإنما يختارون السكاج لأنها تبقى على الأيام وأبعد من الفساد^(١) .

وفى تصوير المثالب ووصف العيوب تطالعنا فكاهات الجاحظ وطرائفه أمثلة كثيرة تدل على براعة أبى عثمان فى رسم صورة ساخرة تجسم العيوب وتبرز النقائص . وهذه صورة واحد من الطفيليين قذرى المؤاكلة وهو على الأسوارى تضع بين أيدينا شربطا مصورا عن جسمه ونهيه ، يحكى الجاحظ على لسان الحارثى - أحد البغلاء - يقول فى ذم على الأسوارى : وما ظفكم برجل نهش بضعة لحم تمرقا^(٢) فبلغ ضروبيه وهو لا يعلم .. وكان إذا أكل ذهب عقله وجمعت عينه وسكر وسدر وانهر ، وتربد وجهه ، وعصب^(٣) ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رأيت ما يعتريه وما يمتري الطعام منه ، صرت لا آذن له

(١) البغلاء ص ٢٣

(٢) تمرقا : أى استنشالا للحم من فوق المظم

(٣) جمعت عينه : عظمت مقلتها ونتاجت ، وسدر : تحير واضطرب ، وانهر : تابع

نفسه ، وعصب : أى جف الزيق بفيه من شدة الجهد .

إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقي^(١) ولم يفجأني قط وأنا آكل تمرا إلا استغه
سفا، وحساء حسوا، وزدا به زدوا. ولا وجده كنيزا إلا تناول القصة
كجمجمة الثور، ثم يأخذ بمضنيها، ويقلها من الأرض. ثم لا يزال ينهشها
طولا وعرضا ورفما وخفضا حتى يأتي عليها جميعا، ثم لا يقع غضبه إلا على
الأنصاف والأثلث. ولم يفصل ثمرة قط عن ثمرة. وكان صاحب جل (بضم الجيم
وفتح اليم) ولم يكن يرضى بالتفريق. ولا رمى بنواة قط، ولا نزع قما،
ولا نقى عنه قشرا. ولا نقشه مخافة السوس والدود ثم ما رأيته قط إلا وكأنه
طالب ثار، وشحشحان صاحب طائله^(٢)، وكأنه عاشق مغلم، أو جائع
مقرور.

فانظر إلى وصف الجاحظ لذلك الرجل وكيف توصل إلى تجلية ملاحظه
بالتصوير الدقيق لحاله ساعة يجلس إلى الطعام فيذهب عقله ويحفظ عينه ويسكر
وينبهر... الخ، ثم صورته وهو يقل القطعة من التمر كأنها «جمجمة الثور»
ولنلاحظ تلك المبارات ذات الإيحاء القوي في هذا المقام مثل قوله: «جمجمة
الثور» و «استغه سفا» «حساء حسوا» «ينهشها طولا وعرضا ورفما
وخفضا».

وأخيرا تصويره في حرصه وتهافته على الطعام كأن له عنده ثارا يطالبه به
أو كأنه عاشق لا صبر له عن معشوقته، أو جائع محروم طال عهده برؤية الطعام،
وتقلب دهرأ طويلا في جنبات الحرمان.
وصورة أخرى من تلك الصور المعبرة التي رسمها الجاحظ لواحد من الطفليين
وهو قاسم التمار نطلع منها على دقة التصوير. وعذوبة الوصف. قال: «وكان

(١) الباقي: الفول.

(٢) الشحشحان: النور الشجاع، والطائفة: الثار.

قاسم شديد الأكل ، شديد الخبط ، قذر المؤاكلة ، وكان أسخى الناس على طعام غيره ، وأبخل الناس على طعام نفسه . وكان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط . فكان لا يرضى بسوء أدبه على طعام ثمامة حتى يجر معه ابنه إبراهيم . وكان بينه وبين ابنه إبراهيم في القدر بقدر ما بينه وبين جميع العالمين . فكأنما إذا تقابلا على خوان ثمامة لم يكن لأحد - على أيهما - وشمالهما - حظ في الطيبات ^(١) .

وعندما يأخذ الجاحظ في وصف الطباع تراه يعرض عليك صوراً دقيقة لما يعتمل في نفوس الشخصيات التي يصورها ، فيجملك تلاحظهم في إخطراتهم وهو أجسدهم ، وأمانتهم ، وإن كانوا هم في ظاهر الأمر يبدون خلاف ما يبطنون ، ويحتدون في إخفاء ذائلهم ومشاعرهم لأنها تفضحهم إن هم أعلنوها ، وتجر عليهم المزد والسخرية لتصادمها مع أعراف الجماعة ، وما تواضعت عليه من مثل وقيم .

هذا « تمام بن جعفر » علم من أعلام البخلاء ونمط طريف من الشخصيات التي صورها الجاحظ تصويراً دقيقاً ، فهو نموذج للبخيل الحذر ، الذي يخشى على طعامه عدوان النهمين ، ويفرق من تعرضه للجشع الآكلين ، فتراه يتوجس من الجميع خوفاً ، ويتشكك في نواياهم وفي مسلكهم وطباعهم وعلى الأخص فيما يتعلق بالطعام ، وجميعهم عنده نهمون جشعون ، وكلهم لديه مبطلون مخطئون على أي نحو كانوا وبأية صورة بدوا .

يقول أبو عثمان الجاحظ في تصويره لشخصية « تمام » :

« كان تمام بن جعفر بخيلاً على الطعام ، مفرط البخل . وكان يقبل على كل

من أكل خبزہ بكل علة ، ويطالبہ بكل طائلة ، وحتى ربما استخرج عليه أنه كان حلال الدم . وكان إن قال له نديم : ما في الأرض أحد أمشي مني ، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحضر^(١) مني . قال : وما يمنعك من ذلك وأنت إنما كل أكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل إلا البطن ؟ لا حمد الله من يحمذك .

فإن قال : لا والله إن أقدر أن أمشي لأنني أضعف الخلق عنه . وإني لأنهر من مشي ثلاثين خطوة . قال : وكيف تمشي وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون حملاً ؟ وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل ؟ وأي بطين يقدر على الحركة ؟ وإن الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود فكيف بالمشي الكثير ؟ فإن شكا ضرره وقال : ما نمت البارحة مع وجهه وضررته . قال : عجبت كيف اشتكيت واحداً ولم تشتك الجميع ؟ وكيف بقيت إلى اليوم في فيسك حاكّة^(٢) ؟ وأي ضرر يقوى على الضرس والطحن ؟ والله إن الأرحاء السورية لعلكل^(٣) ، وإن المنحاز^(٤) الغليظ ليقع به الدق . ولقد استبطأت لك هذه العلة . إرفق فإن الرفق يمن ، ولا تحرق بنفسك فإن انلرق شؤم . ولإن قال : لا والله إن اشتكيت ضرراً لي قط ولا تحلج لي سنّ عن موضعه منذ عرفت نفسي قال : يا مجنون لأن كثرة المضغ تشد العمور وتقوى الأسنان وتدبغ اللثة وتغذو أصولها ، وإعفاء الأضراس من المضغ

(١) الحضر : المدو والجرى .

(٢) الحاكّة : السن ، وجمعها حواك .

(٣) للمنحاز : الهاون .

يرينها^(١)، وإنما القم جزء من الإنسان ، وكما أن الإنسان نفسه إذا تحرك وعمل قوى ، وإذا طال سكونه تفتخ واسترخى فكذلك الأخراس . ولكن رفقا فإن الإتمام ينقض القوة ، ولكل شيء مقدار ونهاية . فهذا ضررك لا تشككيه ، بطنك أيضاً لا تشككيه ؟

فإن قال : والله إن أروى من الماء ، وما أظن أن في الدنيا أحداً أشرب منى الماء . قال : لا بد للتراب من ماء ، ولا بد للطين من ماء يبطله ويرويه أوليست الحاجة على قدر كثرته وقلته . والله لو شربت ماء الفرات ما استكثرتك لك ، مع ما أرى من شدة أكلك وعظم لقمك .

فإن قال : ما شربت اليوم ماء البقرة ، وما شربت أمس بمقدار نصف رطل وما في الأرض إنسان أقل منى شرباً للماء . قال : لأنك لا تدع لشرب الماء موضعاً ، ولأنك تكثّر في جوفك كنزاً لا يجد الماء معه مديحلاً .

فإن قال : ما أنام الليل كله وقد أهلكنى الأرق . قال : وتدعك السكظة والنقخة والقرقرة أن تغام ؟ ..

فإن قال : ما هو إلا أن أضع رأسي فإني أنا حجير ملقى إلى الصبح . قال : ذلك لأن الطعام يسكو ويخدر ويختل ويبل الدماغ ويبل المروق ، ويسترخى عليه جميع البدن ، ولو كان في الحق لكان ينبغي أن تغام الليل والنهار^(٢) .

(١) يرينها : يوهنها ويضدها .

(٢) البغلاء ص ١١٦ وما بعدها .

وهكذا يأخذنا الجاحظ بأسلوبه الممهود في الاحتجاج للشيء وضده إلى تمثل شخصية تمام بن جعفر بأدق تفاصيلها . فهو رجل - كما رأينا - كل همه الطعام والشراب ، وكل ما يمرض للرجل من أصحابه وعارفيه من قوة أو ضعف ، ومن سلامة أو مرض ، ومن نوم أو أرق ينبعث في تفكير « تمام » من الطعام ، ويرتبط دائماً بالطعام . ومن النوادر الطريفة التي حكها الجاحظ من « تمام » أيضاً تلك الطرفة ، قال^(١) :

« وشرب مرة التبيذ ، وغناه المغنى فشق قميصه من الطرب . فقال لمولى له يقال له « المحلول » وهو إلى جفبه : « شق أنت أيضاً - وبلك - قميصك » . قال : « لا والله لا أشقه ، وليس لي غيره » . قال : « فشقه وأنا أكسوك غداً » . قال : « فأنا أشقه غداً » . قال : « أنا ما أصنع بشقك له غداً ؟ » . قال : « وأنا ما أرجو من شقه الساعة ؟ » . قال الجاحظ : فلم أسمع بإنسان قط يقايس وينظر في الوقت الذي إنما يشق فيه القميص من غلبة الطرب غيره وغير مولاه محلول .

ثانيا : السخرية والتهكم

وهما طابع معظم فساكات الجاحظ ، والسمة المشتركة في ذعاباته الهادفة وتلميحاته الدالة .

والسخرية والتهكم من الأدوات المهمة في التأثير على القارىء وجذب انتباهه ، وهما مظهر لعقلية الكاتب وذكاؤه ومعيار لبعده نظره ، هذا فضلا عن أن السخرية والتهكم تشيعان في الأثر الأدبي حيوية وقوة بحسبانها علامة على التفاعل إيجاباً وسلباً مع الظواهر المختلفة التي لها تأثير في حياة الناس .

وتتفوق السخرية والتهكم في مجال الإصلاح والانتقاد على اللوم الصريح والتعنيف العلن ، لأن السخرية تبعث ومضات خاطفة على الظاهرة التي يراد ذمها ، ولا تعريها كل التعرية وكذلك التهكم . ومن ثم يختلف وقعهما عن وقع القند الصريح الذي قد يبلغ في بعض الأحيان درجة التجريح أو الهجاء المرذول .

وتتنوع السخرية تبعاً لشخصية الكاتب وعقليته فقد تكون قريبة من التصريح ، موهلة في التجريح ، وقد تسمو فتتخفى مسارها ، وتتوارى سهامها ، وتكون مع ذلك شديدة الوقع ، مؤلمة اللذع عند من يدرك مفزاها ويبصر مرماها .

ولقد كانت سخرية الجاحظ من هذا النوع الأخير الذي يكاد يخفى إلا على البصراء به ، ويلتوى على من لا يفهمونه ، فهي سخرية تقصد إلى « الأذواق المترفة والمدارك المرفهة » ، حق لقد يرى بعض القراء هذه الصورة أو تلك - من

صور الجاحظ الساخرة فلا يكاد يتنبه إلى مواطن السخرية فيها ، إذ كانت
سخرية الذهن الدقيق والذوق الرفيع المذهب ، والفن الخالص المعمكن ^(١) .

ولعل مما أكسب سخریات الجاحظ وتهكمه تلك الخاصية أنه لم يهدف
بهذه ولا تلك إلى الغدر والتشفي ، ولم يستخدمهما وسيلة لإطفاء الحقد أو سلاحاً
للانتقام ، وذلك بأنه رجل فطر على حب الناس والحياة ، فهو إذا سخر
أو تهكم كان مبعث ذلك في نفسه هو شعوره بالإشفاق على من يتهكم بهم
أو يسخر منهم إن كانوا أهلاً للارتداع عما هم فيه ، أو يكون قصده تحذير
الآخرين من طباعهم وأخلاقهم وسلوكهم إن كان دأبهم داء عضالاً .

ومن دلائل ذلك أننا نرى الجاحظ يتعاطف في أحيان كثيرة مع بخلائه
ويرثي لهم لتيقفه بأن بخل الكثيرين منهم شيء في أصل طبيعتهم لا يسهل عليهم
الخلاص منه ، فتجده يقول عن أبي محمد الخزازي أحد بخلائه : « كان أبخل
من برأ الله ، وأطيب من برأ » ^(٢) ، وهذه عبارة يشتم منها الرئاء للخزازي ،
فمع اتصافه بالبخل وبلوغه في ذلك الحد لم يمتنع الجاحظ من وصفه بأنه كان
أطيب من خلق الله .

ويقول عن أبي عبد الله المروزي : « وأبو عبد الله هذا كان من أطيب
الخلق وأملحهم بخلاً وأشدهم رياء » ^(٣) .

وتقابل في فكاهات الجاحظ الأساليب الساخرة من شخصيات متعددة

(١) مقدمة البخلاء للدكتور طه الحاجري ص ٥٦

(٢) البخلاء ص ٥٩

(٣) نفس المرجع ص ٢١

وعلى السفة شتى ، فأحياناً يصطنعها الجاحظ في محاوراته الفكاهية ، ومعايشاته
المرحة ، وأحياناً يجريها على السفة من بصورهم ويحكى محاوراتهم .

والطريف أن الجاحظ - إماماً آمنه في حيوية الحوار وجدته - ربما عمد
إلى إنطاق الأشخاص الذين هم أساساً منطاط السخرية وموضع التهم -
ربما أنطقهم بالأقوال الساخرة التي تنطوى على تنقيح آراء العائنين لهم
والزارين عليهم .

من أمثلة ذلك ما حكاه عن سهل بن هارون في رده على العائنين له ودفاعه
عن مسلكه في الختم على الأطعمة الثمينة والفاكهة النفيسة حتى لا يميث بها
عبيد نهم أو صبي جشع أو أمة لسكفاء أو زوجة خرقاء .. الخ .

تراه يقول :

« من شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن ، وأعلف حمارة السم
المقشر »^(١) .

وهي عبارة تقطر تهكاً وسخرية من عائى سهل بن هارون الذين لا يرون
رأيه ، ولا يتهجون - في الختم على الفرائس - نهجه .

ومثال آخر نسوقه على السخرية التي تجرى على ألسنة الأشحاء وأهل
الحرص ، وهو من جملة دفاع «الحارثى» عن حرصه وضنه بطعامه على المستأكلين
أهل النهم والجشع الذين لا هم لهم إلا أن يملأوا بطونهم من موائد غيرهم ،
ثم لا يكون منهم شكر ولا تحدة ...

(١) البخلاء ص ١١ .

يقول الخارثي :

« وكم قد رأينا من الأعراب من نزل برز صرمة^(٢) ، فأنام بلبين وتمر
وحيس وخبز وسمن سلاء ، فبات ليلته ثم أصبح بهجوه : كيف لم ينحر له
— وهو لا يعرفه — بميراً من ذوده أو من صرمة ؟ ولو نحر هذا البائس لكل
كلب مر به بميراً من مخافة لسانه ، لما دار الأسبوع إلا وهو يتعرض للسائلة
يتسكف الفاس ويسألهم العلق^(١) .

ولا يخفى ما في قوله : ولو نحر هذا البائس لكل كلب مر به . . . إلخ »
من سخرة لاذعة ، تفتوى على تسفيه زعم أولئك الطامعين ، وتجهيل من
يطارعونهم ، مخافة التشنيع عليهم أو التشهير بهم .

أما الصور الساخرة التي يرضها علينا الجاحظ فهي أمتع ما في فكاهاته
وأحفلها بضروب التلميح والتعريض والغمز والتسفيه وفي ثنايا ذلك كله
تستبين لنا طاعات الجاحظ التعبيرية التي تمسكه من اصطناع كل تلك
الفنون في الصورة الواحدة فتأبى ممتعة للقارىء والسامع ، بمبارتها المؤثرة
وسياقها المشوق .

وهذه إحدى صوره الساخرة التي تطالعها في كتاب البخلاء .

يقول الجاحظ :

كان « أبو الهذيل » أهدي إلى « موسى » دجاجة . وكانت دجاجته التي

(١) الصرمة من الإبل : ما بين العشرة إلى الأربعين .

(٢) العلق ، جمع علقة : ما يقبض به من المييش والخبر في البخلاء ص ٧٣

أهداها دون ما كان يتخذ لمويس ، ولسكنه بكرمه وبحسن خلقه أظهر القمعجب من سمنها وطيب لحها ، وكان يعرفه بالإمساك الشديد . فقال : وكيف رأيت يا أبا عمران تلك الدجاجة ؟ قال : كانت عجبا من العجب فيقول : وتدرى ما جنسها ؟ وتدرى ما سننها ؟ .. وتدرى بأى شيء كنا نسمنها ، وفى أى مكان كنا نعلقها ؟ فلا يزال فى هذا ، والآخر يضحك ضحكا نعرفه نحن ، ولا يعرفه أبو الهذيل .

وكان أبو الهذيل أسلم الناس صدرا ، وأوسمهم خلقا ، وأسهلهم سهولة ، فإن ذكروا دجاجة قال : أين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة ؟ فإن ذكروا بطة أو عناقا أو جزورا أو بقرة قال : فأين كانت هذه الجزور فى الجزر من تلك الدجاجة فى الدجاج ؟ وإن استسمن أبو الهذيل شيئا من الطير والبهائم قال : لا والله ولا تلك الدجاجة . وإن ذكروا عذوبة الشحم قال : عذوبة الشحم فى البقر والبط ويطون السمك والدجاج ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج ، وإن ذكروا ميلاد شيء أو قدوم إنسان قال : كان ذلك بعد أن أهديتها لك بسنة ، وما كان بين قدوم فلان وبين البعثة بتلك الدجاجة إلا يوم . وكانت مثلا فى كل شيء ، وتاريخنا لسكل شيء^(١) .

والسخرية - كما رى فى القصة - مصحوبة بالتصوير الدقيق لطبع أى الهذيل . وإمساكه الشديد ، وذلك لأن البهجيل إذا اضطرقه الصلات الاجتماعية إلى أن يعطى واحداً من إخوانه شيئا من ماله - ولو كان هيفا - فإن نفسه تظل متعلقة بذلك الذى منحه يده ، ولما كان لا سبيل له إلى استعادة ما أهداه فإن

نوازع الحرص في نفسه تتلذذ بذكر ما أعطت تماما كما حدث هنا من
أبي الهذيل وترديده لذكر الدجاجة ، وذلك لأمرين :

أولها : إرضاء نفسه الشخصية وإشعارها بأن الدجاجة لم تضع هباء وإنما
أصبحت ذات مقام شتى وفوائد متعددة .

والآخر : إرضاء غروره الشخصي بإقناع نفسه أنه سعى معطاء .

التربيع والتدوير :

وهي رسالة من رسائل الجاحظ التي جعلها معرضا للسخرية والتهكم وأبدع
فيها أرق ما عرفه الأدب العربي في ذلك العهد من أساليب السخرية والتعريض .
وهنا أنسب موضع للحديث عنها وإعطاء القارى فكرة عن مضمونها .

بدور موضوع الرسالة حول شخصية « أحمد بن عبد الوهاب » الذي كان
يعمل كاتباً في عهد الخليفة العباسي « الواثق » ، وكان ذلك الكاتب دعياً من
الأدعياء لجعله الجاحظ بهذه الرسالة هبة للمعتبرين ، وخلص صورته المسوخة
على مر السنين .

والحق أن رسالة « التربيع والتدوير »^(١) لا يقتصر دورها على السخرية

(١) يرجع الاستاذ فوزى عطوى أحد من حقق هذه الرسالة أن التسمية فيها
ليست من عمل الجاحظ وإنما من عمل الناسخين ويستدل على ذلك بأن الجاحظ لم
يذكرها بهذا الاسم بل اكتفى في الجزء الأول من كتاب الحيوان بأن أحال من
لا يفهم بعض محتويات سفره الضخم على الرسالة التي كتبها إلى أحمد بن عبد الوهاب .
ارجع التربيع والتدوير تحقيق عطوى ص ٦

بواحد من الأدعياء ، وإنما تتجاوز ذلك إلى اشتغالها على العديد من الفوائد العلمية والأدبية التي حشدتها الجاحظ في ثذايا عبثه بـ ابن ~~الوهاب~~ كما هو شأنه في معظم كتاباته ، بحيث أصبحت الرسالة بالنظر لهذه الفوائد أشبه ما تكون بدائرة معارف على حد تعبير البارون « كرادى فو »^(١) .

وسأقصر حديثي هنا على جانب السخرية في الرسالة ، وهو يدور في حلقات ثلاث :

الأولى : التهم بالعيوب الجسدية في أحمد بن عبد الوهاب وتجسيم تلك العيوب والمبالغة فيها على طريقة الجاحظ المعهودة التجسيم المضحك « السكاريكاتير » يقول عنه في بداية الرسالة^(٢) :

« كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول . وكان مربعا ، وتحسبه لسمعة جفرتة^(٣) واستفاضة خاصرته مندورا . وكان جعد الأطراف^(٤) قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعى البساطة والرشاقة وأنه عتيق الوجه ، أخص^(٥) البطن ، معتدل القامة ، تام العظم .

وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه

(١) نقلا عن كتاب أدب المنزلة للدكتور عبد الحكيم بليغ ص ٢٨٠

(٢) التربييع والتدوير ص ٩ تحقيق فوزى عطوى .

(٣) الجفرة - بغم الجيم - : جوف الصدر أو ما يجمع الصدر والجنبين .

(٤) جعد الأطراف : قصيرها .

(٥) ضامر .

طويل الباد^(١) رفيع الماد، عادي القامة، عظيم الهامة قد أعطى البسطة في الجسم والسمة في العلم .

ويخاطبه في موضع آخر هازئاً به متهماً بشكله الذي صورده قبل فيقول^(٢) :

« .. وفيك أسران غريبان ، وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك ، وتعاور النقصان والزيادة إياك ، فجوهرك فلسفي وتركيبك أرضي ، ففبك طول البقاء ، ومعك دليل الفناء ... » .

ويعاود الجاحظ العبث بابن عبد الوهاب ، فيقول له بعد تصوير الذي افتتح به الرسالة :

« .. وبعد .. فأنت أبقاك الله ، في يدك قياس لا ينكسر ، وجواب لا يفتطمع ، ولك حد لا يقل ، وغرب لا يثني ، وهو قياسك الذي إليه تنسب ومذهبك الذي إليه تذهب أن تقول : « وما على أن يراني الناس عريضاً وأكون في حكمهم غليظاً » ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفي الحقيقة مقدود رشيق ، وقد علموا أبقاك الله أن لك مع طول الباد راكباً ، طول الظهر جالساً ، ولكن بينهم فيك إذا قت اختلاف ، وعليك ، إذا اضطجعت مسائل^(٣) . »

وفي هذا الجانب الذي يتناول السخرية من شكل أحمد بن عبد الوهاب

(١) الباد : باطن الفخذ ، وما يلي السرج من فخذ الفارس .

(٢) ص ٣٧

(٣) الرسالة ص ١٨

وتكوينه الجسدى تبدو براعة الجاحظ فى توليد المعانى الساخرة ، وذلك بتحليل
المعنى الواحد أو الفكرة المحددة إلى معان وأفكار جزئية ، ثم العودة إلى
تناول تلك الجزئيات وتضخيمها والتفريع عليها .

فالفكرة الأولى فيما عرضناه آنفاً تدور حول الصورة العامة لشكل
ابن عبد الوهاب ، كما صورته الجاحظ « قصيراً مرهلاً » غير أن الجاحظ يولد
من هذه الصورة الواقعية صورة متخيلة ، وهى أنه « مدور » ثم يبنى عليها
صورة أخرى ، وهى أنه شبيه بالفلك ، ولكفه فلک من نوع آخر يحوى
المتناقضات ويضم المتباعدات .

ثم يولد من الفكرة الأولى أيضاً أن بإمكان ابن عبد الوهاب أن يدعى
أنه طويل رشيق ، لأن هذا الادعاء لا يخالفه فيه أحد وهو جالس أو راكب ،
وإن كان الخلاف ينشأ عندما يقوم أو يضطجع .

الثانية : التهم بمجهول ابن عبد الوهاب ، وإظهار خوائه ، وكشف زيفه ،
وتسفيه ادعائه . ومن هذا الجانب يستطرد الجاحظ فيمنثر فى رسالته حشداً من
الحقائق العلمية والفوائد الأدبية والتاريخية ، وإن يكن معظمها معروضاً فى إطار
الاستفهام والاستفسار .

ومهما يكن من أمر فهذه التساؤلات الكثيرة تدل على غزارة ثقافة
الجاحظ ، وموسوعة معرفته ، وتنوع مهاراته العقلية . ومن جهة أخرى تكون
القاعدة التى تطلق منها سخريته بابن عبد الوهاب ، وإظهاره على هوان شأنه ،
وضحالة علمه ، وقلة محصوله .

واقتابع بعض ما سرده الجاحظ فى هذا الشأن . يقول مُرجّها كلامه
لابن عبد الوهاب :

« اعلم أن الحمد اسم لما فضل عن المنافسة ، كما أن الجبن اسم لما فضل عن التعوق ، والبخل اسم لما قصر عن الاقتصاد ، والسرف ماجاوز الجود . وأنت - جملة فداك - لاتعرف هذا ولو أدخلت الكور^(١) ، ونفخت عليك إلى يوم ينفخ في الصور^(٢) ١١

ويقول له في موضع آخر :

« وقد اختلفوا في العقل بأكثر من اختلافهم في العلم ، ففغنى من ذكره لك فموضه عليك ، واستقاره علك ، وعلمت أنى لا أقدر أن أصوره لك دون دهر طويل ، ولا أضمنك معناه دون تريب كثير^(٣) .

ويقول له في خيام تساؤلاته الكثيرة التي عرضها عليه :

« وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا ، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها ، وما فيها خرافة ، ~~وهنا~~ ^{وما فيها} محال ، وما فيها صحيح ، وما فيها فاسد — فألزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي^(٤) ..

الثالثة : مواجهة الجاحظ لابن عبد الوهاب بالمسائل المويضة ، والمعضلات المعجزة ، والتظاهر بأنه يسأله لأنه معدن العلم ، وموضع الفقه ، وهو العالم الحجة

(١) الكور : بحيرة الحداد .

(٢) رسالة الترييع والتدوير ص ١٧

(٣) للرجع السابق ص ٩٣ ، والتريب : التربية والإصلاح .

(٤) للرجع السابق ص ٩١ .

والراوية الحافظ ، الذي أدرك السابقين ، وحصل مشافهة علوم الأولين
والآخرين .

ها هو ذا الجاحظ يعاتبه ويهزأ به فيقول له :

« وقد ذكرت الرواة في المعمرين أشعاراً ، وصنعت في ذلك أخباراً ،
ولم نجد على ذلك شهادة قاطعة ولا دلالة قاطعة ، ولا تقدر على ردها لجواز
معناها ، ولا على تثبيتها إذ لم يكن معها دليل يثبتها ، وقد تعرف ما في الشك
من الحيرة ، وما في الحيرة من القلق ، وما في القلق من الغضب ، وما في الغضب
من طول الفكرة . . . فافتح لبيك باباً نسترح إليه ، وأقم له علماً تقف
عقده ، فقد علمت ما ذكروا من حمر قابضة بنى جمدة ، ومالك ذى الرقية ،
ونصر بن دهمان .

وأنت - أبقاك الله - تعرف ميلاد آبائهم وأجدادهم وقبائلهم وعمايرهم ،
وأصولهم وأجدامهم . تخبرني أكذبوا أم صدقوا ؟ اقتصدوا أم أسرفوا ؟

ثم يهزأ به مرة أخرى فيقول له بعد أن سرد على مسامحة طائفة من المعارف
والحقائق العلمية :

« هذا ما عندي من العلم البراني ، وأنت أبصر بالعلم الجواني ، وزعم بعض
تلاميذك أنك تعلم لم كان الفرس لا طحال له ؟ ولم صار البعير لا مراة له ؟
ولم كانت السمكة لا رئة لها ؟ . . . وزعمت أنك تعرف في الخفاش سبعين
أعجوبة ، ونحن لا نعرف إلا سبعة ، وأنت تعرف في الذهب مائة خصلة كريمة
والناس لا يعرفون إلا عشرة ، وأنت تعرف في البعير ألف داء ودواء ،
والأعراب لا تدعى إلا مائة داء بغير سر . »

وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه المسائل التي ساقها الجاحظ لابن عبد الوهاب مساق التعجيز والتعجيل قد عرض هو لها في كتيبه ورسائله ، وعلى الأخص في كتاب « الحيوان » .

« والخلاصة في رسالة التربييع والتدوير أنها طراز فريد لأدب الفكاهة والتهكم والسخرية ، مع فيض في المعاني ، وتراء في الترادف ، ويسر في الأسلوب وسهولة في التعبير ، وتلوين في الصور ، لا يقدر عليها إلا كاتب فنان متمكن مثل الجاحظ »^(١).

(١) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية للدكتور مصطفى الشكعة ص ٥٨٩

ثالثاً : واقعية اللغة

وهي حمة مهمة من سمات الأدب الفكاهي الجاحظي ، وعن طريقها اكتسبت فكاهاته حيويتها وإمتاعها ، لأن هذه الواقعية اللغوية جاءت في أكثر الأحوال مصحوبة بالتصوير الدقيق والوصف المستوفى ، فأسهمت في إضفاء طابع الواقعية على صورها المتنوعة ، ولا ريب أن جانباً كبيراً من الإمتاع في الشيء المضحك يعود إلى توافقه مع ذهنية القارئ والسامع ومشاهداته ، فنحن لا نضحك إلا من المواقف التي نستطيع أن نتمثلها ونتمخيلها .

وقد برع الجاحظ بهذه الواقعية بشقيها : اللغوي ، والتصويري في استيفاء تلك الجوانب ، ومن ثم اكتملت لفكاهاته مقومات الطرافة ، واتسمت بالظرف ، وسرت فيها روح الريح .

وبهذه الخاصية اللغوية أعاننا الجاحظ على متابعة محاوراته الفكاهية ، وقصصه التي حكها عن شخصياته المضحكة ، وضاعف من عنصر التشويق فيها ، وبالتالي أشركنا معه في سخريته بمن سخر منهم ، وتهكك على من تهكم بهم ، وجعلنا نتعاطف مع أقاصيصه وطرائفه ، وقبولنا لدينا مشاعر الكراهية والازدراء للأشخاص الذين جعلهم هدفاً لسخريته .

ومما يسترعى النظر أن الجاحظ كان يعي أهمية تلك الواقعية اللغوية وعلى الأخص في حكاية الفكاهة أو النادرة ، فتراه يقرر ذلك في كتاب «البغلاء»^(١)

موضحا المنهج الذى انتهجه فى صياغة طرائف وأخبار الأشخاص الذين حكى
نوادرم وفكاتهم ، يقول :

« وإن وجدت فى هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً ممدولاً
عن جهته فاعلموا أننا تركنا ذلك لأن الإعراب ينفض هذا الباب ويخرجه من
حده ، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متماقلى البخلاء وأشجاء العلماء كسهل
ابن هارون وأشياحه »^(١) .

ويعمل الجاحظ لرأيه فى أسلوب النادرة ، وضرورة إثباتها كما صورت
عن قائمها دون تحوير ، أو إعراب لكلام ملحون ، أو العكس ، فيقول
فى كتابه « الحيوان »^(٢) .

« إن الإعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ،
لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبه تلك الصورة ، وذلك الخرج ، وتلك اللغة ،
وتلك العادة ، فإذا دخلت على هذا الأمر - الذى إنما أضحك بسخفه وبعض
كلام العجمية التى فيه - حروف الإعراب والتحقيق والتثقيب ، وحولته إلى
صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء ، وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع
انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » .

وفىما يتعلق بالمقالة الأولى التى نبه فيها الجاحظ على وجود عبارات ملحونة

(١) لعل فى هذه المقالة من الجاحظ ما يؤكد استنتاجنا السابق حول دوره الفنى
فى أفاضيله الفكاهية وطرائفه التى نثرها فى مؤلفاته المختلفة ، وهو دور الصياغة
والسبك ، وإدارة الحوار على النحو الذى يحقق غرضه الفنى فى أدبه الفكاهى .

وكلام غير معرب في كتابه « البخلاء » - اتضح للباحثين أن المخطوطات المتأخرة نسبياً لكتاب « البخلاء » قد غيرت نساخها تلك العبارات الملحونة ، ووضعوها في قالب فصيح ، اعتقاداً منهم أنها وردت بطريق الخطأ ، ولأنهم لم يدركوا المغزى من وجودها على هذه الصورة ، وقد استبان ذلك من مقارنة النسخ القديمة من مخطوطات « البخلاء » بالنسخ الأحدث ، إذ تبدو العبارات الملحونة مثبتة كما هي في النسخ القديمة .

وقد أشارت إلى هذا الكشف الدكتورورة ودیعة طه النجم في كتابها « الجاحظ والحاضرة العباسية »^(١) تقول :

« فالجاحظ إذا يريد أن يميز بين لغة عامة البخلاء ولغة متكلمي البخلاء أو متعاطي البخلاء ، لكن مما يؤسف له حقاً أن البخلاء كما وصلنا بشكله الحالي يضيع عابثاً كثيراً من الفرصة لإدراك هذه الميزة التي قصد الجاحظ إليها قصداً ، والسبب في ذلك أن الكتاب قد أعيد فيه نظر الباحثين ليحقق هدف اللغة الفصحى لا هدف الجاحظ الفني عند إثبات الملحون من الكلام » .

ومهما تكن غيرتنا على اللغة الفصحى ، وحرصنا على تقوية ما من شأنه النهوض بها فإننا في هذا المجال لا يسعنا إلا أن نوافق الجاحظ في وجهته التي تستند على فهم دقيق لطبيعة الفكاهة ، وإدراك واع لمقطلباتها .

فالفكاهة — كما لا يخفى على المتأمل — تعتمد على التلميح الدال ، والإشارة السريمة ، ولا تحتل التحليل أو الاستقصاء ، ومن ثم فهي تستلزم العبارة الواضحة ، واللغة السهلة المفهومة ، هذا فضلاً عن أنها تعتمد في بعض صورها

على إشارات لغوية خاصة يفهمها كل قوم على حسب أعرافهم وعاداتهم ولهجاتهم، وطرائقهم في التفاهم والتفادير والغمز والسخرية .

ولعلنا نلاحظ أن الذين يصطنعون الفكاهات أو « الفكات » كما تسمى في عصرنا الحاضر ، يحرصون على تقليد أسلوب من يحكون نواذرهم وفكاهاتهم وقد يعود جانب كبير من الامتناع في فكاهاتهم إلى تلك الحكاية ، وربما كانت الفكاهة نابعة من الطريقة اللغوية التي يُنطق بها الكلام العادي ، من قِبَل شخص أعجمي أو ما شا كل ذلك ، وتصبح طريقة النطق هي موضع التندر والضحك .

ومن المشهور لدى غالبية الناس في مصر في العصر الحاضر تفدر سائرهم من طلبة بعض أهل الصعيد ، وهم الذين ينطقون « الجيم » « دالا » وهؤلاء تنسب لهم نواذر^(١) ذات دلالة خاصة في ذهن سائر المصريين وهي بالطبع ليست واردة بمعانيها تلك أو إيماءاتها في عرف الناطقين بها من أهل الصعيد .

وهذا الذي قرره الجاحظ حول حكاية الفكاهة والنادرة يشبه أن يكون أصلاً للنظرية النقدية الدائمة فيما يتعلق بلغة المسرح ، فقد كثر الجدل بين النقاد حول هذه القضية ، فمنهم من ذهب إلى إباحة العامية على الإطلاق ، ومنهم من نادى باصطناع الفصحى حرصاً عليها وصيانة لها ، وفريق ثالث دعا إلى ضرورة إنطاق الشخصيات الممثلة باللغة المناسبة لها ، وهي اللغة التي تستخدمها في الواقع ، بحيث إذا كانت الشخصية المعروضة على المسرح من عامة الناس فلتسكن لغتها

(١) من ذلك ما ورد المتندرون على لسان أحد أبناء تلك الجهة من قوله لصاحبه الذي جاء ليزوره في القاهرة مودعاً له : ... وسلم لي على الأندال ندل ندل وبالأخص الندل الكبير !!

الفاطمة بها هي العامية ، وإن كانت المسرحية تمثل أشخاصاً غرباء في الزمان
بأن كانت تحكي أحداثاً تاريخية ، أو في المكان بأن كانت مترجمة فينبغي أن
تكون لغتها هي اللغة الفصحى .

ولعلنا نلح أن الجاحظ قد وضع أصول هذه النظرية الأخيرة وهو يوضح
لنا منهجه في حكاية أقوال وطرائف بخلائه ، فهو بصطنع اللغة الفصحى بعباراتها
الرصينة وقوالها المحسكة عندما يحكي كلام متعاقلي البخلاء كسهل بن هارون
والسكندی وأبي العاص وابن التوأم . . . ويقسامح في إيراد العبارات الملعونة ،
والكلام العامي عندما يصور أقوال ومحاورات الدهماء والعامه .

وتطبيق الجاحظ لهذه النظرية الصائبة هو الذي أكسب فكاهاته طرائفها
وتأثيرها في قرائه ، إذ استطاع عن طريق اصطناع لغة من يصورهم أن يرسم
صوراً دقيقة لشخصياتهم ، ويتبدى ذلك بوضوح في كتاب « البخلاء » الذي
عالج فيه الجاحظ الكتابة بأسلوب الحكاية والوصف في مواطن كثيرة .

ويأخذنا العجب عندما نتابع الجاحظ في نوادره التي يحكيها ، فإذا كان
يخيله من أهل النظر وأقطاب المتكلمين لسنا في الكلام الذي يجريه على لسانه
الأقبيسة المنطقية ، والاحتجاج المتقن ، وتفنيذ آراء الخصم ، وتعقب رأيه وقلب
دعواه . . . وإذا كان تاجراً رأينا في كلامه عبارات التجار واصطلاحاتهم
وإذا كان فقيهاً وجدنا منطق الفقهاء وأسلوبهم . . . وهكذا في سائر النماذج
الاجتماعية التي عرض لها الجاحظ ، وحكي جانباً من طرائفها ، ورسم صوراً
دقيقة لمسلكتها وأسلوب حياتها ، مثل الصيافة ، والمرايين ، والشطار ،
والمكذّين . . . وهذا الصنيع يدل على ثراء الموهبة الفنية عند الجاحظ وتوقع
معارفه ، وتعدد صلاته وملابساته لطبقات الناس وفئاتهم من مختلف الأجناس

والبقاع ومقدرته الفذة على أن يحاكي هذا وذاك ، وبصور بدقة وجلاء حوار أولئك وهؤلاء .

ولنتأمل هذه الفقرة من رسالة سهل بن هارون إلى بني عمه حين ذموا مذهبه في البخل ، وتمقبه أقوالهم ورده على مزاعمهم بمنطق محكم وقياس دقيق يقول^(١) :

« ... وعيتم على قولي : من لم يعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص ، لم يعرف مواقع الاقتصاد في المتفع الغالي . فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها عن مبلغ الكفاية ، وأشف^(٢) من الكفاية ، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء ، محدث في الأعضاء فضلا على الماء ، فعلت أن لو كنت مكنت الاقتصاد في أوائله ورغبت عن التهاون به في ابتدائه ، لخرج آخره على كفاية أوله ، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر ، فعبتموني بذلك وشتمتموه بجهلهم وقبحهم ، وقد قال الحسن عند ذكر السرف : إنه سيكون في الماعونين : الماء والسكلا » .

وفي موضع آخر من الرسالة يقول^(٣) :

« وعبتموني حين زعمت أنني أقدم المال على العلم ، لأن المال به يفاث العالم ، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم ، وأن الأصل أحق

(١) البخلاء ص ١٠

(٢) أشف : أزيد ، من شف الشيء إذا زاد

(٣) المرجع السابق ص ١٤ .

بالفضيل من الفرع ، وأنى قلت : وإن كفا نستبين الأمور بالنفوس ، فإننا بالكفاية نستبين وبالخلة^(١) . نعمى . وقلتم : وكيف تقول هذا ، وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدم الأدباء : العلماء أفضل أم الأغنياء ؟ قال : بل العلماء . قيل : فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى ، ولجهل الأغنياء بفضل العلم . فقلت : حالهما^(٢) فى الفاصلة بينهما ، وكيف يستوى شيء تترى حاجة الجميع إليه ، وشيء يغنى بعضهم فيه عن بعض .

ويحكى الجاحظ فى معرض الحديث عن بخل أهل خراسان خبراً عن أبى نواس يقول فيه : « كان معنا فى السفينة - ونحن نريد بغداد - رجل من أهل خراسان ، وكان من عقلائهم ومن فقهاءهم ، فكان يأكل وحده . فقلت له : لم تأكل وحدك ؟ قال : ليس على فى هذا الموضع مسألة ، إنما المسألة على من أكل مع الجماعة ، لأن ذلك هو التكلف ، وأكلى وحدى هو الأصل ، وأكلى مع غيرى زيادة فى الأصل »^(٣) .

وأسلوب الشيخ الخراسانى فى هذه القصة ، ومنطقه فى الجواب يدل على أنه ينتمى إلى ذهنية الفقهاء ، ولو لم يخبرنا الجاحظ فى سياق القصة أنه من عقلاء القوم وفقهاءهم لما وجدنا صعوبة فى الاعتداء إلى صفاته .

ويستطرد الجاحظ . وهو يحكى نوادر الحارثى فى البخل فيسوق هذا الحوار :
« قيل للحارثى بالأمس : والله إنك لتصنع الطعام فتجعيده وتعظم عليك

(١) الخلة : الفقر والحاجة ، ونعمى يقصد تجهل (على المجاز) .

(٢) البخلاء ص ٢٤

الدفقة وتكثر منه ، وإنك لتعالي بالخباز والطباخ والشواء والخباص^(١) ،
نم أنت مع هذا كله لا تشهد عندك لقمته ، ولا ولياً قدسه ، ولا جاهلاً
لتعرفه ، ولا زائراً لقمته ، ولا شاكراً لثمنه . . . قال : ينعني من ذلك
ما قال أبو الفاتك . قالوا : ومن أبو الفاتك ؟ قال : قاضي القتيان ، وإلى
لم آكل مع أحد قط إلا رأيت منه بعض ما ذمه ، وبعض ما شتمه وقبحه ،
فشيء يقيح بالسطار فما ظنك به إذا كان في أصحاب المروءات وأهل البيوتات ؟
قالوا : فما قال أبو الفاتك ؟

قال : قال أبو الفاتك : الفتى لا يكون نشالاً ، ولا نشافاً ، ولا مرسلأً ،
ولا لسكاماً ، ولا مصاصاً ، ولا نقاضاً ، ولا دلاًكاً ، ولا مقووراً ،
ولا مغربلاً ، ولا محلقماً ، ولا مسوئلاً ، ولا ملقماً ، ولا مخضراً .
فكيف لو رأى أبو الفاتك اللطاع والقطاع والفراش والمداد والدناع
والحوئل ؟^(٢)

والقصة على طرافتها ، وما يبدو فيها من احتيال لدفع تهمة البخل — تحفل
بالألفاظ ذات الدلالة الخاصة ، والحق تمثل قاموساً خاصاً — إن صح هذا
التعبير — في أوصاف التهمين وأرباب الشره ، ولذا حرص الجاحظ على
تفسيرها فأفرد لها موضعاً بعد أن سرد طائفة من نوادر الحارثي ، قال^(٣) :

أما قوله : الفتى لا يكون نشالاً « فالنشال » عنده : الذي يتناول من
القدر ، ويأكل قبل النضج ، وقبل أن تنزل القدر : يتقائم القوم .

(١) الخباص : صانع الخبيص ، وهو نوع من الحلوى .

(٢) البغلاء ص ٦٧

(٣) المرجع السابق ص ٧٦ وما بعدها .

و « النشاف » : الذى يأخذ حرف الجرذقة ، فيفتحه ، ثم يغمسه فى رأس القدور ، ويشربه الدسم ، يستأثر بذلك دون أصحابه .

و « المرسال » رجلان : أحدهما إذا وضع فى فيه لقمة هريسة أو تريدة أو حيسة^(١) أو أرزة . أرسلها فى جوف حلقه لإرسالها .

والوجه الآخر : هو الذى إذا مشى فى أشب^(٢) من فسيل^(٣) أو شجر قبض على رأس السمفة ، أو على رأس الغصن ، لينتجعها عن وجهه ، فإذا قضى وطره أرسلها من يده ، فهى لا بحالة تصك وجه صاحبه الذى يتلوه ، لا يحفل بذلك ، ولا يعرف ما فيه .

وأما « اللكّام » : فالذى فى فيه اللقمة ، ثم يلكها بأخرى قبل إجادة مضغها أو ابتلاعها

و « المصاص » : الذى يمص جوف قصبة العظم ، بعد أن استخرج مخه واستأثر به دون أصحابه .

وأما « النفاض » : فالذى إذا فزع من غسل يده فى الطمست نفخ يده من الماء ، فنضج على أصحابه .

وأما « الدلاك » : فالذى لا يحيد تفقية يديه بالأشنان^(٤) ، ويحيد دلكتها بالمدبيل . . .

(١) الحيسة : تمر ينزع نواه ويخلط باللبن والسمن ويدلك حتى يصير كالزبد .

(٢) أشب : ملتف .

(٣) فسيل : صفار النخل

(٤) الأشنان : نبات تنسل به الثياب والأبدى .

و « المقور » : الذى يقور الجراذق ، ويستأنر بالأوساط ، ويدع لأصحابه الحروف .

و « المغربل » : الذى يأخذ وعاء الملح ، فيديره إدارة الغربال ليجمع أبازيره^(١) ، يستأنر به دون أصحابه ، لا يبالي أن يدع ملحم بلا أبزار .

و « الملقم » : الذى يكلم واللقمة قد بلغت حلقومه ...

و « المسوغ » : الذى يعظم اللقم ، فلا يزال قد غص ، ولا يزال يسيغه بالماء .

و « الملقم » : الذى يأخذ حروف الرغيف ، أو يفمز ظهر التمرة بإبهامه ، ليحملها له من الزبد والسمن ، ومن اللبن واللبن ، ومن البيض النيمبرشت^(٢) أكثر .

و « المخضر » : الذى يذلك يده بالأشنان من الغمر والودك^(٣) ، حتى إذا اخضر واسود من الدرن ، ذلك به شفته .

هذا تفسير ما ذكر الخارثى من كلام أبى فاتك ، فأما ما ذكره هو : فإن « اللطاع » معروف ، وهو الذى يقطع إصبعه ، ثم يعيدها فى سرق القوم أوليهم أو سويهم وما أشبه ذلك .

(١) أبازيره : توابله ، أى التى تخلط بالملح لتكون من المشهيات .

(٢) النيمبرشت : هو ما يدعونه فى مصر الآن بالبرشت ، وهو ما لم يتم نضجه .

(٣) الغمر : ربح اللحم ، وما يعلق باليد من دسمه ، والودك : دسم اللحم والشحم وما يتحلب من ذلك .

و «القطاع» الذى يعض على اللقمة ، فيقطع نصفها ، ثم يغمس النصف الآخر فى الصباغ .

و «النهش» : وهو الذى ينهش اللحم كما ينهش السبع .

و «المداد» : الذى ربما عض على العصبة التى لم تنضج ، وهو مدها بفيه ، ويده توترها^(١) له ، وربما قطعها بنترة ، فيكون لها انتضاج على ثوب المؤاكل وهو : الذى أكل مع أصحابه الرطب أو التمر أو الهريسة أو الأرزة ، فأتى على ما بين يديه ، مدّ ما بين أيديهم إليه .

و «الدقاع» : الذى وقع فى القصة عظم ، فصار مما يليه ، نجاه بلقمة من الخبز حتى يصير مكانه قطعة من لحم ، وهو فى ذلك كأنه يطلب بلقمة تشرب المرق دون إراغة^(٢) اللحم .

و «المحول» : هو الذى إذا رأى كثرة النوى بين يديه ، احتال له حتى يخلطه بنوى صاحبه .

ولعل الجاحظ قد أدرك أن هذه الأوصاف التى وردت فى كلام أبى فانتك ثم الحارثى ، تمثل عرفاً خاصاً لأنواعيات من اللعامظة^(٣) وقذرى المؤاكلة ومن ثم تولى تفسيرها وبيان المراد بكل وصف منها ، وهى كما رأينا تشتمل على معظم أوصاف الطفيليين^(٤) ومن يغلب على نفوسهم الشره والطمع فيستعدل بسلوكهم

(١) توترها : تشدها . (٢) أى طلبه والسعى إليه .

(٣) واحدها لمظ ، وهو النهم الشهوان . ويقال له القموظ أيضاً .

(٤) الطفيليون ، ينتسبون إلى رجل من أهل الكوفة يدعى «طفيل» قال عنه =

(٩ - أدب الفكاهة عند الجاحظ)

على انحطاطهم عن رتبة ذوى الهمم العالية والنفوس الأبية من أهل القناعة ،
ومن يكتفون من الطعام بما يرد الجوع ، ويقيم الأود .

وفى حديث الجاحظ عن خالد بن يزيد - أو خالويه المسكدي^(١) كما كان
يدعى - يسوق على لسانه طائفة من العبارات والاصطلاحات التى يتداولها
المسكدون وكان الجاحظ أول الكتاب العرب تنويعها بهم وذكر أنهم ، يقول
حاكياً طوائف خالويه المسكدي :

« وكان ينزل فى شق بنى تميم فلم يعرفوه ، فوقف عليه ذات يوم سائل وهو
فى مجلس من مجالسهم فأدخل يده فى الكيس ليخرج فلساً ففلس بدرهم . . فلم
يفطن حتى وضعه فى يد السائل ، فلما فطن استرده وأعطاه الفلس ، فقيل له :
هذا لا نظنه يحل ، وهو بعد قبيح . قال : قبيح عند من ؟ إني لم أجمع هذا المال
بمقولكم فأفرقه بمقولكم . ليس هذا من مساكين الدرام . هذا من مساكين
الفلس . والله ما أعرفه إلا بالفراصة . قالوا : ولأنك لتعرف المسكدين ؟ قال :
وكيف لا أعرفهم وأنا كنت « كاجار »^(٢) فى حدائنه سنى ، ثم لم يبق فى
الأرض مخطراتى ولا مستعرض إلا فقهه ، ولا شحاذ ولا كاغان ولا بانوان

= الجاحظ : كان أبعد الناس نجمة فى طب الولائم والأعراس ، فقيل له لذلك « طفيل
المرائس » ، وصار ذلك نبراً له ، ولقباً لا يعرف بغيره ، فصالح كل من كانت تلك طعمته
يقال له : طفيل . (البخلاء ص ٧٨) .

(١) المسكدي : من التكدية وهى استجداء الناس ، وطالب المال منهم ، وإن
كان تصوير الجاحظ لهم يتجاوز هذا المعنى الأدنى المحدد كما سنرى .

(٢) كاجار : ذهب الدكتور طه الحاجرى فى تفسيرها إلى أنها كلمة كانت تطلق على
بعض النبائل التركية الرحالة ، وعنها أخذت كلمة « عجير » التى تطلق على طائفة « النور »
(البخلاء ص ٣٠٩) .

ولا قوسى ولا عواء ولا مشعب ولا فلور ولا مزبى ولا اسطيل إلا وكان تحت يدى . . . ولم يبق فى الأرض كعبى ولا مكدا إلا وقد أخذت المرافة عليه .

وكا فعل الجاحظ بكلام أبى فانتك والخارنى عرج على مقالة خالوية ، ففسر ما اشتبهت عليه من ألفاظ ومسميات يعرفها المكدون وتدوار على السنتهم ، فقال :

المخطرانى : الذى يأتىك فى زى ناسك ، ويربك أن « بابك »^(١) قد قور لسانه من أصله لأنه كان مؤذناً هناك ، ثم يفتح فاه كما يصنع من يتشاءب ، فلا ترى له لساناً البقية ، ولسانه فى الحقيقة كلسان الدور . وأنا أحد من خدع بذلك ، ولا بد للمخطرانى أن يكون معه واحد يعبر عنه ، أو لوح أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته .

والسكاغسانى : الذى يتجتن ويتصارع^(٢) ويزبد ، حتى لا يشك أنه مجنون لا دراء له ، لشدة ما ينزل بنفسه ، وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علمته .

والبانوان : الذى يقف على الباب ويسل النلق^(٣) ، ويقول : بانوا . وتفسير ذلك بالمربية : يا مولاي^(٤) .

- (١) هو بابك الحزى الذى خرج فى زمن المتصم ثم قتل .
- (٢) يتجتن : يتظاهر بالمجنون ، ويتصارع . يتظاهر أنه مصاب بالصرع .
- (٣) النلق : ما ينلق به الباب ، ويسل النلق : ينزله من موضعه ليفتح الباب .
- (٤) علق الدكتور صلاح الدين المنجد فى كتابه « الظرفاء والشحاذون فى بغداد » =

والقرصى : الذى يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً ، ويبيت على ذلك ليلة ، فإذا تورّم واختنق الدم ، مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين^(١) ، وقطر عليه شيئاً من سمن ، وأطبق عليه خرقة ، وكشف بعضه ، فلا يشك من رآه أن به الأكلة^(٢) أو بلية تشبه الأكلة .

والمشقب : الذى يحتمل للصبي حين يولد ، بأن يعميه أو يجعله أعمى أو أعضد^(٣) ، ليسأل الناس به أهله ، وربما جاءت به أمه وأبوه^(٤) ليتولى ذلك منه بالغمم الثقيل ، لأنه يصير حينئذ عقدة وغلة^(٥) ، فإما أن يكتسبها به وإما أن يكرياه بكرام معلوم . وربما أكرؤا أولادهم من ينفى إلى أفريقيا فيسأل بهم الطريق أجمع بالمسال العظيم ، فإن كان ثقة مليئاً وإلا أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً .

== «باريس» ص ٩١ - علق على هذا التفسير قال : كذا أورده الجاحظ، وقد أخبرني الأستاذ الشاعر أحمد الصافي النجفي أن الأصح : « بينوا » ومعناها بالفارسية : منقطع مسكين .

(١) دم الأخوين : نوع من العقاقير تداوى به الجراحات .

(٢) الأكلة : الحكة والجرب .

(٣) الأعمى : المصاب ببس في مفصل الرسغ فاعوجت منه يده ، وقد يكون في القدم . والأعضد الدقيق المضد ، والذى تكون إحدى عضديه قصيرة .

(٤) أبدي الجاحظ دهشته من مسلك هؤلاء القساة وعملهم الذى يتنافى مع كل القيم الإنسانية بل مع مقتضى الفطرة . فقال فى كتابه « البرصان والمرجان » (ص ٢٣٧) :

« فلا أدري أيهم أعظم كفراً وأقسى قلباً ، الآباء أو الأمهات الذين لا يأتون إلى

المشعب وهم أطفال حتى يرمى أبصارهم ويبرج أرجلهم ويمنهم ويشوه بهم أو للشعب نفسه الذى ترك كل صناعة فى الأرض وتعلم هذه الصناعة لجمالها مكسبه التى لا يفارقها . »

(٥) اللقطة : الضيمة والمقار وما فيه بلاغ الرجل . واللقطة : كل ما يحصل من ربح

الأرض أو أجرتها ونحو ذلك . ولتراد أنه يصير مصدر ربح .

ويعنى الجاحظ على هذا النحو فيفسر كلام خالويه ويطلعنا من خلال ذلك على كثير من حيل المسكين وتفننهم في استخراج الأموال من أيدي الناس بوسائل شتى وأفانين من السكر والخداع والختل ، ويصور دقائق وأسراراً لا يعرفها عنهم سائر الناس ، ويشير الجاحظ في ختام تفسيره لما ورد في قصة خالويه إلى أنه اكتفى بتفسير ما ذكره خالويه ، وإن كان المسكون في الحقيقة أضعاف ما ذكره أو أشار إليه .

ولا يفوت الجاحظ أن يمتنع قراء « البخلاء » بوصية خالويه لابنه ، وهي حافلة بالتصوير الدقيق لحيل المسكين وطباعهم ، والجدير بالنظر في هذه الوصية أن الجاحظ أجرى على لسان خالويه عبارات بذيئة في معرض نصحه لولده ، فتراه يقول له مثلاً :

« يا ابن الخبيثة ، إنك وإن كفت فوق أبناء هذا الزمان فإن الكفاية قد مسختك ومعرفتك بكثرة ما أخلف قد أفسدتك »^(١) .

ولا غرابة في أن يتفوه رجل مثل خالويه بتلك الألفاظ ، وهو كما صورناه الجاحظ ذو وجهة في عالم المسكين ، وتلك هي طباعهم ، وذلك الأسلوب في الحديث والنصح هو أسلوبهم .

وجملة القول أن واقعية التعمير في الأدب الفسكاهي عند الجاحظ تعد من الملامح المميزة لأسلوبه وتضطلع بدور مهم في حرارة فسكاهاته وعذوبة طرائقه ، وقد استبان لنا من خلال ما سقناه حولها أن أبا عثمان قد وضع أصول نظرية نقدية لها وزنها في لغة المسرح في العصر الحديث .

رابعاً : الأقصوصة الفكاهية

وهي تلك القصص التي تطول قليلاً عن الطرفة أو الفادرة ، وتصور حدثاً متكاملاً ، ويدور حول موقف محدد ، ويستغرق وقتاً قد يطول بعض الشيء ، ويكون الحدث فيها طريفاً غريباً ، ويتملق بشخص واحد أو عدد قليل من الأشخاص .

وتمثل تلك الأقاصيص عنصراً مهماً من عناصر الأدب الفكاهي عند الجاحظ ، وتعد سمة من السمات المميزة لفكاهاته ، وتتحقق فيها كافة المميزات المعنوية والأسلوبية للفكاهة عنده . فقد برع الجاحظ في اصطفاة الأقاصيص الفكاهية ، وأجاد أيما إجادة في إخراجها على صورة فنية متقنة ، إذ نراها محكمة الصياغة ، سلسلة السرد ، حافلة بالتصوير الدقيق والحوار المشوق .

وتنبعث الفكاهة في تلك الأقاصيص من طرافة الأحداث وغرابتها ، ومن شخصيات أبطالها وما تنطوي عليه تصرفاتهم من مقارقات مضحكة ، وما يتورطون فيه من مشكلات يحتملون للخروج منها والتغلب عليها ، فيحالفهم الصواب حيناً ويخطئهم أحياناً ، وفي الحالين يكونون موضع عجب القراء والسامعين سواء أظهروا دهاء وكياسة لم تتوقعها منهم أم حاولوا الظهور للناس بصفات ليست فيهم ، ثم جاءت الوقائع والأحداث لتكشف تزيفهم وخداعهم .

وهذه إحدى أقاصيص الجاحظ الفكاهية التي تطلعنا على أسلوبه في صياغة ذلك اللون المتمتع من ألوان أدبه الفكاهي ، إذ نلص فيها طرافة الحدث ، وإتقان الحبكة القصصية ، وجمال السرد ، ودقة الوصف ، وبراعة التصوير .

حكى الجاحظ عن بشر بن سعيد قال^(١) :

« كان بالبصرة شيخ من بني نهشل يقال له « عروة بن مرثد » ، نزل ببني أخت له في سكة بني مازن ، وبنو أخته من قريش ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم ، وذلك في شهر رمضان ، وبقيت النساء يصلين في مسجدنهم ، فلم يبق في الدار إلا كلب يعس ، فرأى بيتاً فدخل ، وانصفق الباب ، فسمع الحركة بعض الإمام ، فظنوا أن لئلاً دخل الدار ، فذهبت إحداهن إلى أبي الأعز ، وليس في الحى رجل غيره ، فأخبرته . فقال أبو الأعز : ما يبتغى اللص منا ؟ ثم أخذ عصاه وجاء حتى وقف على باب البيت فقال : إيه يا ملامان ! أما والله إنك بي لعارف ، وإني بك أيضاً لعارف ، فهل أنت إلا من لصوص بني مازن ، شربت حامضاً خبيثاً ، حتى إذا دارت الأقداح في رأسك متتلك نفسك الأماني ، وقلت : دور بني عمرو والرجال خلوف ، والنساء يصلين في مسجدنهم فأسرقن ! سوءة والله ، ما يفعل هذا الأحرار ! لبئس والله ما متتلك نفسك ! فخرج وإلا دخلت عليك فصرمتك^(٢) بي المقوبة ! لأيم الله لتخرجن أو لأهتفن دتفة مشثومة عليك ، يلتقي فيها الحيان عمرو وحفظلة ، وبصير أسرك إلى تهاب ، ويحىء سعد بمدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من ها هنا وها هنا ! واثن فعلت لتسكونن أشأم مولود في بني تميم !

فما رأى أنه لا يجيبه أخذه بالآلين وقال : اخرج يا بني وأنت مستور ، إني والله ما أراك تعرفني ، ولو عرفتنى لقد قفعت بقولي ، واطمأنت إلي ، أنا عروة بن مرثد أبو الأعز المرثدى ، وأنا خال القوم ، وجدة ما بين

(١) الحيوان ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢) صرمتك : قطعتك قطعا باثنا .

أعينهم ، لا يعصوننى فى أسر ، وأنا لك بالذمة كنفيل خفير ، أصهرك بين شحمة أذنى وعاتقى لا تضار ، فاخرج فأنت فى ذمتى ، وإلا فإن عندى قوصرتين^(١) إحداها إلى ابن أخى البار الوصول ، نخذ إحداها فانتبذها^(٢) حلالا من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق ، وإذا سكت وثب يربغ^(٣) المخرج فتهافت الأعرابي أى تساقط ثم قال : يا ألام الناس وأوضمهم ، ألا يأتى لك أنا منذ الليلة فى واد وأنت فى آخر ، إذا قلت لك السوداء والبيضاء تسكت وتطرق ، فإذا سكت عنك تربغ المخرج ؟ ! والله لتخرجن بالعمو عنك أو لألجن عليك بالمقوبة !

فلما طال وقوفه جاءت جارية من إماء الحى فقالت : أعرابي مجنون !! والله ما أرى فى البيت شيئاً !! ودفعت الباب فخرج الكلب شدا ، وحاد عنه أبو الأعز مستلقيا !! وقال : الحمد لله الذى مسخك كلبا ، وكفانى منك حرباً !! ثم قال : قاله ما رأيت كلاليلة ، ما أراه إلا كلبا !! أما والله لو علمت بحاله لو لجت عليه .

وفى أقصوصة الشيخ المرندي هذه تسكتمل عناصر الموقف الفكاهى المضحك والذى ينبعث فيها من مشاعر الخوف والاضطراب التى استولت على الشيخ وظهرت على أقواله وتصرفاته ، وإن حاول جهداً أن يخفيها . وقد أبدع الجاهل في حبك الأقصوصة ، وجعل تسلسل الأحداث فيها متواءما مع طرافة الحوار

(١) القوصرة : وعاء من قصب يوضع فيه التمر .

(٢) انتبذها : خذها مستحقا لها .

(٣) يربغ : يريد ويطلب .

ففي البداية أراد الشيخ أن يشجع نفسه لحمل عصاه وأتجه ناحية البيت وأخذ يفيض في تهديده لذلك اللص المزعوم ، ويتوعدده ، ويؤنبه على فعلته المنيعة ، ثم عندما أحس أن ذلك لم يجد شيئاً لجأ إلى وسيلة أخرى للتخلص من شر اللص ، فعرض عليه أن يؤمنه ويحميه ، بل تنازل فقرر أن يمفحه عطاء ولوح له بنوعية الجائزة ، وأن يستر عاياه ولا يكشف أمره . . . كل ذلك لينطى شعوره بالخوف ، وليتخلص من ذلك الموقف الحرج الذي وضعته الظروف فيه ، حيث لم يكن في الحى رجل غيره .

وبالإضافة إلى ما يحيط بالحدث الرئيسى فى الأقصوصة من بواعث الإضحك لما فى الموقف نفسه من مفارقة تغترع الضحك انتزاعاً . فقد ساق الجاحظ على لسان الشيخ المرندى بعض الأقوال التى تبين عن اضطرابه وقلقه ونفاذ حيالته ، وذلك عندما يتفوه ببعض عبارات لا تجديه شيئاً فى هذا الموقف ، كأن يعرف اللص بنفسه ، ويذكر له اسمه وكنيته ، ويدلّه على منزلته عند بنى أخته وأنهم يبارون به ، وصولون له .

ولا يخفى أن التصوير فى الأقصوصة دقيق كل الدقة ، حتى إن الجاحظ ليأخذنا فى بعض الأحيان لنرى المشهد الذى يصوره ، وكأنه مائل أمام أعيننا من ذلك تصويره للشيخ عندما كان يسمع حركة داخل البيت فى أثناء حوارهِ مع اللص و « مفاوضته » له يقول :

« فتهاوت الأعرابى أى تساقط » .

ومن المشاهد التى برع الجاحظ كذلك فى تصويرها مشهد خروج السكّاب من البيت بعد أن دفعت الجارية الباب . يقول الجاحظ :

« فخرج السكّاب شداً ، وحاد عنه أبو الأعز مستلقياً » .

وهنا يرسم الجاحظ صورة حية المشهد ، حيث ينفلق الكلب مسرعاً وقد
انفسح أمامه السبيل بمد حبس طويل ، ويتنحى أبو الأعز وقد أزعجه الخوف ،
فيستلقي على ظهره ، وهو يخلى الطريق لذلك « الشيء » الذي نشر الخوف
في كيانه كله ، وكاد يأتي عليه فزعاً وفرقاً .

ونمة أقصوصة أخرى نعرضها في هذا السياق وهي عن أقاصيص الأعراب
أيضاً ، غير أنها هنا تكشف عن مكرهم وتفاؤلهم ، حكى الجاحظ عن أحد
رؤاته قال : حدثني أعرابي كان ينزل بالبصرة قال : قدم أعرابي من البادية
فأنزلته ، وكان عفيدي دجاج كثير ، ولى امرأة وابنان وابنتان منها ، فقلت
لامرأتى : بادري واشوى لنا دجاجة وقدميها إلينا نتغداها ، فلما حضر الغداء
جلسنا جميعاً : أنا وامرأتى وابناى وابنتاى والأعرابي . فدفعنا إليه الدجاجة
فعمد : أقسمها بيننا — نريد بذلك أن نضحك منه — فقال : لا أحسن
القسمه فإن رضيتم بقسمتي قسمتها بينكم قلنا : فإننا نرضى . فأخذ رأس الدجاجة
فقطعه فناولنيه وقال : الرأس للرأس ، وقطع الجناحين وقال : الجناحان لابنين ،
ثم قطع الساقين فقال : الساقان للابنتين . ثم قطع الزمكى^(١) وقال : المعجز
للمعجز ، وقال : الزور للزائر ، قال : فأخذ الدجاجة بأسرها وسخر بنا ، قال :
فلما كان من الغد قلت لامرأتى : اشوى لنا خمس دجاجات فلما حضر الغداء .
قلت : أقسم بيننا . قال : إني أظن أنكم وجدتم^(٢) في أنفسكم قلنا : لا . لم نجد
في أنفسنا فاقسم . قال : أقسم شفعاً أو وترا قلنا : اقسم وترا . قال : أنت
وامرأتك ودجاجة ثلاثة ثم رمى إلينا بدجاجة ثم قال : وابناك ودجاجة ثلاثة

(١) الزمكى : منبت الدنب .

(٢) وجدتم — بكسر الجيم — غضبتهم .

ثم رمى إليهما بدجاجة ، ثم قال : وابتعناك ودجاجة ثلاثة ثم رمى إليهما بدجاجة ،
ثم قال : أنا ودجاجتان ثلاثة . وأخذ دجاجتين وسخر بنا . وقال : فرأنا ونحن
ننظر إلى دجاجتيه فقال : ما تفعلون ؟ لعلكم كرهتم قسمتي . الوتر لا يجيء
إلا هكذا . فهل أنكم في قصة الشفع ؟ قلنا : نعم ، فضمن إليهما ثم قال : أنت
وابنك ودجاجة أربعة ورمى إليهما بدجاجة ثم قال : والمعجوز وابتعاها ودجاجة
أربعة ورمى إليهما بدجاجة ، ثم قال : أنا وثلاث دجاجات أربعة وضم إليهما
الثلاث ، ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم لك الحمد أنت فتمتتها !!

أما أقاصيص البخلاء فهي كثيرة ومتنوعة ، منها ما يدور حول شخصية
من شخصيات البخلاء ، أو عصبية منهم ، كقصة المسجدين ، ومنها ما يحكيه
الجاحظ بأسلوب السرد المباشر وذلك عندما يكون هو — أو من يروي عنه —
معاينا للأحداث التي يحكيها ، وفي الحالين كليهما تستوفى الأقصوصة أركانها
التي رأيناها في الأقاصيص المعروضة قبل قليل ، من تنابع الحدث بصورة منطقية
إلى توفر عنصر التشويق ، إلى متانة الصياغة ودقة الوصف .

وانستعرض هنا جانباً من أقاصيص المسجدين ، وهم — كما عرف بهم
الجاحظ^(١) — ناس ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة والتمسير للمال من أصحاب
الجمع والمقع . وقد كان هذا المذهب عفاً كالنسب الذي يجمع على التجارب ،
وكالحلف الذي يجمع على التناصر ، وكانوا يجتمعون في المسجد ، فإذا التقوا
في حلقتهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه ، التماساً للفائدة ،
واستمتاعاً بذكوره .

فقال شيخ منهم :

(١) البخلاء من ٢٩ وما بعدها .

ماء بثرنا — كما قد علمتم — مالح أجاج ، لا يقربه الحمار ، ولا تسيغه الإبل وتوت عليه النخل ، والنهر منا بعيد ، وفي ~~الغالب~~ العذب علينا مؤونة ، فسكننا نزع منه للحمار فاعقل منه . . . فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفاً ، وكنت أنا والقمجة^(١) كثيراً ما نفقتل بالعذب مخافة أن يعترى جلودنا منه مثل ما اعترى جوف الحمار ، فسكان ذلك الماء العذب يذهب باطلا ، ثم انفتح لي باب من الإصلاح ، فعدت إلى ذلك المتوضأ ، فجعلت في ناحية منه حفرة ، وصهرجتها^(٢) وملستها ، حتى صارت كأسها صخرة منقورة ، وصوبت إليها المسول ، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافياً لم يخاطه شيء . . . والحمار لا تقو له من ماء الجفابة وليس علمنا خرج في سقيه منه . وما علمنا أن كفايا حرمه ، ولا سنة نهت عنه ، فربحنا هذه منذ أيام ، وأسقطنا مؤونة عن النفس والمال .

قال القوم : هذا بتوفيق الله ومنه .

فأقبل عليهم شيخ فقال :

هل شعرت بموت مريم الصفاع . . . الخ .

ثم يسرد الجاحظ حكاية مريم الصفاع كما حكاه ذلك الشيخ ، ويندفع شيخ آخر منهم فيحكى قصة له مع السعال وكيف استشفى بماء النخالة ووجده طيباً جداً حتى أوصى امرأته بأن تطبخه لعيالهم . . . ويتدافع شيوخ البهلاء واحداً إثر واحد كل يحكى قصة أطرف من سابقتها ، حتى ينتهى الأمر إلى شيخ منهم يحكى قصة معاذة العنبرية فيقول :

(١) يريد بالقمجة امرأته . قال في اللسان: والمرب تسكنى بالقمجة والشاة عن المطبوخ

(٢) صهرجتها : أى عالج جوانبها بالقطران حتى لا يتسرب منها الماء .

لم أر في وضع الأمور مواضعها وفي توفيتها غاية حقوقها كمادة العنبرية .
قالوا : وما شأن معادة هذه ؟ قال :

أهدى إليها النعام ابن عم لها أضحية^(١) ، فرأيتها كثيفة حزينة مفسكرة مطرقة . فقلت لها : مالك يا معادة ؟ قالت : أنا امرأة أرملة وليس لي قيم ، ولا عم دلي بقدير لحم الأضاحي ، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه ، وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها ، وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيها ، ولكن المراء يعجز لا محالة ، ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يحجر تضييع الكثير .

أما القرن فالوجه فيه معروف ، وهو أن يجعل منه كالخطاف ، ويستتر في جذع من أجذاع السقف ، فيطلق عليه الزبل والكيران^(٢) ، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنائير وبنات وردان^(٣) والحيات ، وغير ذلك . وأما المصران فإنه لأوتار المنفقة ، وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس واللاحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق ، ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها ، فلم ير الناس وقوداً أصفى ولا أحسن لها منه . . .

(١) الأضحية : الشاة التي تذبح ضحوة ، جميعها أضاحي . ثم جعلت الكلمة للشاة التي تذبح يوم الأضحي .

الزبل ، جمع زبيل : القفة أو الجراب أو الوعاء . والكيران : الرجل ، جمع كور .

بنات وردان : العراصير .

وأما الإهاب^(١) فالجلد نفسه جراب ، وللصوف وجوه لا تعد . وأما الفرث
والبعر فخطب إذا جف عجيب .

ثم قالت : بقی الآن علينا الانتفاع بالدم ، وقد علمت أن الله - عز وجل -
لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه ، وأن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع
منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كنية
في تلمي . وقدى في عيني ، وهماً لا يزال يعودني .

قال : فلم ألبث أن رأيته قد طلقت وتيسمت فقلت : ينبغي أن يكون
قد افتتح لك باب الرأي في الدم . قالت : أجل ، ذكرت أن عندي قدوراً
شامية جدداً وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ ولا أزيد في قوتها من التلطيف
بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن إذ وقع كل شيء في موقعه .

قال : ثم لقيتها بعد ستة أشهر ، فقلت لها : كيف كان قديد^(٢) تلك ؟ قالت :
بأبي أنت ! لم يحىء وقت القديد بعد ، لنا في الشحم والآية والجنوب والمظم
المعرق وفي غير ذلك معاش ولكل شيء إبان .

فقبض صاحب الحار والماء المذب قبضة من حمى ، ثم ضرب بها الأرض
ثم قال : لا تعلم أنك من المسرفين ، حتى تسمع بأخبار الصالحين .

وهذا السياق الممتع والسرور الأخاذ يشركنا الجاحظ في الاستماع إلى هذه
الطائفة من أقاصيص أهل البصرة من السجديين ، وفي كل أقصوصة منها
صورة دقيقة لطباع أولئك البخلاء المقترين ، وعنصر التشويق في كل منها بارز

(١) الإهاب : الجلد قبل الدبغ ، أو هو الجلد مطلقاً وهو الأنسب هنا .

(٢) القديد : اللحم الملوح الخفيف في الشمس .

بروزاً بيناً ، وتندرج الأقاصيص في دلالتها على الاقتصاد وبذل أقصى الجهد في الوقوف على باب من أبواب تحقيق المفعة بأقل ما يمكن من النفقات حتى فصل إلى قصة معاذة المتبرية ، فنرى المعجب المعجيب في الحرص والشح ، بحيث لم تغادر من الشاة المهداة إليها شيئاً إلا لفادت منه وانقفعت به ، حتى أن صاحب الأقصوصة الأولى لما سمع قصتها لم يتمالك أن قبض قبضة من الحصى ثم ضرب بها الأرض إعجاباً وطرباً بسلوك أئمة في البخل وشيوخه في الحرص والاقتصاد ، وأيضاً حسرة وندماً لإدراكه أنه من المشرفين ، وقد كان يعتقد نفسه في « الصالحين »

وهذه أقصوصة - أخيرة - حكها الجاحظ عن « المصري » الذي يصور بخل جاره « الداردريشي » قال (١) :

« وكان أخوه شريكه في كل شيء ، وكان في البخل مثله ، فوضع أخوه في يوم جمعة بين أيدينا - ونحن على باب - طبق رطب يساوي بالبصرة دافقين ، فبينما نحن نأكل إذ جاء أخوه فلم يسلم ولم يتكلم حتى دخل الدار ، فأنسكرونا ذلك ، وكان يفرط في إظهار البشر ، ويجعل البشر وقاية دون ماله ، وكان يعلم أنه إن جمع بين المنع والكبر قتل . قال : ولم نعرف علقه ، ولم يعرفها أخوه . فلما كان الجمعة الأخرى ، دعا أيضاً أخوه بطبق رطب ، فبينما نحن نأكل إذ خرج من الدار ولم يسلم ولم يقف ، فأنسكرونا ذلك ، ولم ندر أيضاً ما قصته فلما أن كان في الجمعة الثالثة ، ورأى مثل ذلك ، كتب إلى أخيه : « يا أخي كانت الشراكة بيني وبينك حين لم يكنك الولد ، ومع الكثرة يقع الاختلاف ، ولست آمن أن يخرج ولدي وولدك إلى مكروه . . وما هنا أموال باسمي

ولك شطرها ، وأموال باسمك ولي شطرها ، وصامت في منزلي وصامت في منزلك ، لا نعرف فضل بعض ذلك على بعض ، وإن طرقتنا أمر الله ركبت الحرب بين هؤلاء الفقية ، وطال الصنوب بين هؤلاء النسوة ، غارأي أن نتقدم اليوم فيما يحسم عنهم هذا السبب .

فلما قرأ أخوه كتابه ، تماظمه ذلك وهاله ، وقاب الرأي ظهراً لبطن ، فلم يزد القليل إلا جهلاً ، لجمع والده وتغلظ عليهم ، وقال : عسى أن يكون أحد منكم قد أخطأ بكلمة واحدة ، أو يكون هذا البلاء من جرائر النساء ، فلما عرف براءة ساحة القوم ، تمشى إليه حافياً راجلاً ، فقال : ما يدعوكم إلى القسمة والتمييز ؟ ادع صلحاء أهل المسجد الساعة حتى أشهدهم بأنني وكيل لك في هذه الضياع ، وحوّل كل شيء في منزلي إلى منزلك . وجرت ذلك مني الساعة ، فإن وجدتني أروغ وأعتل فدونك ، فحاجتي الآن أن تخبرني بذنبي . قال : مالك من ذنب ، وما من القسمة بد . فأقام عنده يناشده إلى نصف النهار ، ثم أقام يومه ذلك إلى نصف الليل يناشده ويطلب إليه .

فلما طال عليه الأمر ، وبلغ منه الجهد ، قال له : حدثني عن وضعك أطباق الرطب وبسطك الحصر في السكك ، وإحضارك المساء البارد ، وجمعك الناس على بابي في كل جمعة ، كأنك ظفنت أنا كثفاً عن هذه المسكرمة عمياً ، إنك إذا أطعمتهم اليوم البرني أطعمتهم غداً الشكر ، وبعد ، قد الهلثا^(١) ، ثم يصير ذلك بعد أيام الجمع في سائر أيام الأسبوع ، ثم يتحول الرطب إلى الغداء ، ثم يؤدي الغداء إلى العشاء ، ثم يصير إلى السكساء ، ثم الأجداء ، ثم الحلان ،

(١) الهلثات : ضرب من التمر له من جوده ، البرني : نوع جيد منه ، والسكر : نوع من الرطب شديد الحلاوة .

ثم اصطناع الصنائع . والله إني لأرئى لبيوت الأموال ونجراج المملكة من هذا ، فكيف بمال تاجر جمعه من الحبات والقراريط والدوانق والأرباع والأنصاف ؟

قال : جعلت فداك تريد أن لا آكل رطبة أبداً فضلاً على غير ذلك ؟ وأخرى فلا والله لا كلتهم أبداً .

قال : إياك أن تخطئ مرتين : مرة بإطاعهم فيك ، ومرة في اكتساب عداوتهم ، أخرج من هذا الأمر على حساب ما دخلت فيه ، وتسلم تسلم .

ويبقى بعد أن عرضنا هذه النماذج من أقاصيص الجاحظ الفكاهة أن نشير إلى براعته في تحريك الأحداث فيها ، ودقته في تصوير شخصياتها ، وقد بدا ذلك بوضوح في قصة المسجدين ، وهي في الواقع مجموعة قصص ، ولكن الجاحظ جعلها متتابعة الخلفات وأشاع فيها جواً من الجدبة المصطنعة ، يتمثل في تعليقات القوم بعد كل تجربة تعرض عليهم من قبل المقتصد ، وهي تعليقات تدل على الإعجاب والاعتباط بسمع تلك الفوائد ، فترام يقولون بعد أن سمعوا قصة صاحب الحمار والماء العذب : « هذا يتوفيق الله ومته » ، أو ما صنعوه بعد أن سمعوا قصة مريم الصانع ، وحكاة عنهم الجاحظ بقوله : « فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها ، وصلوا عليها ، ثم انكفئوا إلى زوجها فزروه على مصيبتة وشاركوه في حزنه » ، أو قولهم بعد أن سمعوا قصة صاحب النخالة يؤيدونه فيما يقول : « صدقت ، مثل هذا لا يكتسب بالرأى ولا يكون إلا سماوياً » .

وجملة القول أن الأدب الفكاهى عند الجاحظ قد استمد دعائم ارتقائه
الفنى ، من تلك الظواهر التى اكتملت له ، وحرص أبو عثمان على توفرها فيه ،
وهى - فى اعتقادى - تخلص فى النقاط التى أشرت إليها فى هذا الفصل :
دقة التصوير ، وإصابة الوصف ، واصطناع السخرية ، وواقعية اللغة ، وأخيراً
البراعة فى حيل القصص المرححة التى يستهوى القارىء بما تحفل به من عناصر
الشويق والطرافة والتصوير الساخر .

الفصل الخامس

الادب الفكاهي عند البشري وأثر الجاحظ فيه

تناولنا في الفصول المتقدمة الأدب الفكاهي عند الجاحظ ، وألمنا بظواهره وموضوعاته وخصائصه في شكله ومضمونه ، واستبان لنا من خلال ذلك أن الجاحظ كان رائداً في هذا الميدان ، فهو كما قلنا أستاذ الأدب الفكاهي عند العرب غير مدافع .

وقد رأينا أن الكتابات الفكاهية "عنده" تحمل بالمضامين الهادفة ~~والمصاحبة~~ قضايا فكرية وأخلاقية واجتماعية من زاوية خاصة وبأسلوب متميز ومن ثم فإنها لا تقل في قيمتها أو تأثيرها عن الألوان الراقية من الكتابات الأدبية الجادة .

ولا ريب أن هذا النمط من الأدب الجاحظي كان موضع إعجاب واستحسان على مر العصور ، ولا ريب أيضاً أن كثيرين من أدباء العربية وكتابها قد تأثروا به وحاولوا النسخ على مثاله .

ولقد عرف الجاحظ لدى القراء والمقّادين في عصرنا الحديث منذ مطلع عصر النهضة وأقيمت كتبه ومؤلفاته عناية من المحققين والعلماء ، وحرص القارئون على إحياء كعب التراث القديم على نشر مؤلفات الجاحظ ورسائله فتمكن لها صداها القوي وتأثيرها النافع على جيل الرواد الذين كان لهم الفضل في النهوض بأدبنا في العصر الحديث .

وكان من أبرز الأدباء الذين تأثروا بالجاحظ وسلوكوا دربه وحلوا طابعه
الأديب الشيخ عبد العزيز البشرى^(١)، « جاحظ المصر الحديث »^(٢).

والحق أن البشرى جدير بأن يقون بالجاحظ، وبخاصة في جانب ميله إلى
الدعابة واصطناعه للسخرية في كتاباته ونوادره، ثم في تصويره للجموع المصري
في عصره بطوائفه وطبقاته، وعاداته وتقاليده، وما حفلت به حيوات الناس
في زمنه من ألوان الفرائص والذائل والميول والمشارب...

والبشرى لا يحفى تأثره بالجاحظ، ولا ينفى إعجابه به وإكباره لأدبه فقد
سأله مندوب مجلة المعرفة عن الأدباء الذين تأثر بهم فسكان من جوابه أن
قال : « أقدر الجاحظ وأستطيع أنؤكد لك بأنى تأثره وأرتضى صحبته

(١) ولد عبد العزيز البشرى عام ١٨٨٦م في بيت اشتهر بالعلم والدين وكان والده
سليم البشرى عالما من كبار علماء الدين تولى منصب شيخ الأزهر مرتين في حياته .
التحق عبد العزيز بالأزهر ودرس علوم الدين واللغة ، وكان ولوعا بالأدب شغوفنا
بالشعر منذ بداية عهده بالطالب ، فمكف على دواوين الشعراء ومؤلفات الكتاب .
وكانت كتب الجاحظ من أحب الكتب إلى نفسه وعندما تخرج في الأزهر عين
سكرتيرا بوزارة الأوقاف فوزارة المعارف ، ثم نقل إلى القضاء الشرعى وظل ينتقل بين
المحاكم الشرعية حتى عين وكيلاً للمطبوعات ثم مراقبا عاما لمجمع القنة العربية حتى لقي
ربه عام ١٩٤٣ م . « عبد العزيز البشرى للدكتور جمال الدين الرمادى ص ١٠ ، ١١ »
(بتصرف) .

(٢) هذا الوصف جاء في قصيدة للأستاذ محمد عبد الفتى حسن قيلت في رثاء
البشرى منها :

جيل من الأدب الرفيع توأرى	وهزار روض في البلاغة طارا
قد كان ملء الأرض صوتا عاليا	في المشرقين ومنطقا غنارا
باجاحظ المصر الحديث ألا ترى	ركن البيان يكاد أن ينهارا

وأفاخر بها وأحرص عليها ، لقد عرفته منذ أمد بعيد ، عرفته من الساعة التي أدركت فيها أثرا للقراءة القائمة على الدرس والتحقق ، وكما زادت قراءاتي له استوعبت فيه ألوانا جديدة من الروعة والجلال والإمغام .

إن أسلوب الجاحظ قد أربى على الغاية ، جودة وأناقة ورشاقة وجمال توقيع وهو الأسلوب الجزل السهل الذي ينشده لنفسه كل كاتب يريد السكول لقلمه والإبداع في إنتاجه . وإن الجانب النكاهي فيه لا يصور لنا مبلغ قدرة الرجل الفاتكة على التهمك كلما أراد أن يسخر وكلما شاء أن يحز نقداته في القلوب .

... ولست أعلم أن هناك كاتباً قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة في كشف السوءات الاجتماعية هذا الكشف الرائع حتى يعلم القاص مقدار ما فيها من بشاعة وتشويه^(١) .

ولعل في هذا الرأي الذي صرح به البشري ما يغنينا عن الإفاضة في التعليق والبيان إذ يدل على افتتان الرجل بأدب الجاحظ عامة ومعالجاته الساخرة خاصة .

وكان هذا أدب البشري كلما ذكر الجاحظ . فعندما عرض البشري لموضوع القصص في الأدب العربي استطرد فتحدث عن كتابات الجاحظ مثنيا عليها منوها بها فتراه يقول :

« والجاحظ رجل واسع العلم شديد التمسك من النفس ، قوى الحججة ، يملك من ناصية البيان ما لا أحسب أن قد ملكه بعده كثير . فهو لا يزال يمهّد على لسان هذا الرأي ، ويفلج بالحجة ، ويبعث بالشاهد في عقب الشاهد

ويضطرب المثل بعد المثل ، حتى يأخذ عليك مخاض الطوق ، فلا تجد بعدها
محيصا من الإذعان والتسليم ، ثم يبعث لك الطرف الآخر ، فما يزال يدافع تلك
الحجج ، وينقض ما قام بين يديك من الأدلة والشواهد ، ثم ما يزال يبريها
وبفريها حتى تستحيل هباء ينفرق في الهواء ، ثم يردك إلى مكانك الأول ،
ثم يعود بك إلى الثاني . ويظل يرجحك بين الرأيين المختلفين بقوة حجته ،
وسلاطة بيانه . حتى إذا قدر أنه دوتك وأرضى شهوته بإذلال ذهنك ، رحلك
فعدل بك إلى حديث آخر^(١) .

وهذا الذى ذكره البشرى عن طريقة الجاحظ فى عرض الآراء ومناقشة
الأدلة من أصدق ما قيل فى تحليل هذه الطريقة وتصويرها تصويراً دقيقاً .
وتجدر الإشارة إلى أن للبشرى رأياً فى أقاصيص البخلاء فى كتاب الجاحظ
يتسم بالموضوعية وصواب الاستنتاج وقد سقنا كلاماً قريباً منه عندما عرضنا
لدور الجاحظ الفنى فى حكايات بخلائه . يقول البشرى مقررراً وجهة نظره حول
هذا الموضوع :

« ولا أظن أن الجاحظ كان صادقاً فى أكثر ما روى عن بخلائه . ولعله
إن صدق فى أصل بعض فقد غلب فيه غلو كبيراً ، وهلى كل حال ، لقد
كان الرجل فى تصويره وتخيله ، وتشبيهه وتمثيله بارعاً تام البراعة ، رائعا
بالغ الروعة^(٢) .

* * *

(١) المختار للبشرى ج ١ ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .

كان البشرى أديبا من نمط خاص ، ثقف فنون الأدب العربى ، ووعى من أسرار العربية وكنوزها الشئ الكثير ، وكان إلى جانب ذلك عالما أزهريا ، درس علوم الفقه والعقيدة والمنطق وغيرها مما كان يدرس فى الأزهر على عهد ، وكانت للبشرى شخصية علمية متميزة ، تفيد من القراءات المتفوعة ، وتمى روح الثقافة الأوربية ، وإن لم يكن البشرى من المتعمقين فيها أو اللذين بلغاتها . غير أن الذى يميز البشرى أنه كان رجلا ناضح الفكر ، رحب الصدر ، متحررا فى نظرتة إلى الأمور ، لا تستهويه الآراء السابقة ، ولا يعرف الجود ، ولا تصدر آراؤه وأقواله عن تعصب أو تحزب ، بل تأتى وايدة النظر المتأمل والتفكير السديد .

وكان البشرى فضلا عن ذلك كله ذا طبيعة مرحة ، ولوعا بالدعابة والمفاينة ، شغوبا بالأفاكيه ، يمتن التصوير الساخر ، ويلذله أن يصطغم هذا الأسلوب فى المقالات المتنوعة التى كانت تنشرها له الصحف والمجلات ، والأحاديث التى يلقيها عبر المذياع ، أو فى المقاسبات الخاصة التى يدعى إليها .

ولقد شاع عن البشرى هذا الميل إلى المرح وحب الدعابة ، وكانت دعابته تصدر عن نفس مبطورة على هذه النزعة ، فلم يكن فى مرحة أو دعابته ميصنعا أو مقظرفا بل كان ذلك عن سعيه طبع عليها ، فندا بين إخوانه وصدقائه واسطة العقد فى مجالسهم وأنديتهم ، تتمهم طرائفه ، وتروقه دعاباته ، وتلذ لهم معابثاته ، فإذا غاب عنهم افتقدوه وإن أبطأ عليهم طلبوه ، كان هذا شأن البشرى على الرغم من أنه لم يكن وسم الطلعة ، ولا جميل القسما ، فلم يكن الإعجاب به راجعا إلى شئ من الوسامة أو القسامة ، لأنه لم يوزق من ذلك سوى التليل أو لعله أقل القليل ، وإنما كان الإعجاب به لركة طبعه ، وهذب حديثه ، وخفة روحه .

وأستطيع بعد هذا التمهيد أن أحدد جوانب العقاء البشرى بالملاحظ في مجال
الأدب الفكاهى في الأمور التالية :

أولاً : كان للبشرى اهتمام واضح بالفكاهة ، وبحث متأمل لظواهرها
وأصولها ، شبيه بما رأيناه لدى الملاحظ في الفصل الذى وقفنا فيه على فلسفة
الفكاهة عنده .

والحق أن البشرى متأثر في جانب من آرائه حول الفكاهة بأبى عثمان
الملاحظ ، بل نستطيع أن نقول إنه نقل عنه ، وحذا حذوه في خلطه المذلل بالجد
ومزاوجته بين البحوث والمقالات الجادة ، والأخرى الطريفة ذات الطابع
المرح . فنراه - على سبيل المثال - يقول في بداية حديث له بعنوان « التطفيل
والطغيان » :

« بحسبنا ثلاث محاضرات متوالية ، كلها في جد القول ومره ، في زمت هذا
الصيف ووقدة حره . فلنستروح هذه المرة بشيء من التفكيكه ، لنجعل الراحة
لذلك الجد جامات . ففعلن على هذا في الجد دائماً ، حتى إذا احمرقنا يوماً إلى
شيء من العبث أو ما يشبه العبث ، فلنفرقه به أنفسنا ونسلى عنها لنعود لشأننا
مدودى الأنفاس مشدودى المتون . » (١) .

وللبشرى حديث ضاف وبحث مستوعب في « الفكاهة المصرية في العصر
الحديث » يقول فيه :

« . . . إذا أنا خصصت الفكاهة المصرية بالذكر ، فذلك لأننى لا أعرف

أمة من الأمم العربية الأخرى أحسنت هذا النوع أو برعت فيه براعة المصريين » .

ويستطرد البشرى فيذكر أن اللون الذى يعنيه من النسكفة ليس هو النوع المجتذل الذى يعتمد على التلفيق بين صدر معنى من المعانى وبين ألفاظ ثابتة لمعان آخر . . وهو النوع الذى يعرف عقد العامة (بالقافية) .

إنما يريد ذلك النوع الذى تلمحه دقة التفطن ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة ، والقدرة على لطف التصوير . . يقول البشرى : ولقد يكون للنسكفة من هذا اللون مغزى بعيد قد تدبى لمصابعه على الرجل الحكيم ، وقد يكون لها من قوة الأثر ما لا يكون لمقالة الكتائب مهما أطل وأسهب ، ولا لقصيدة الشاعر مهما أضفى وأسبغ .

وهذا النوع من النسكفة يتطلب فى المرء خلاصاً منها — حسب تعبير البشرى — : « الذكاء الدماخ ، وسرعة الخاطر ، وقوة اللسان ، وأعنى بها هنا القدرة على التصوير والتخييل باللسان ، والعلم بأحوال الزمان والبيئة والأشخاص ، وشيء من الجراءة ، ولا أحب أن أقول : شيء من الحياء . وأخيراً لا بد لها من خفة الروح ، فلا خير فى نسكفة نجىء على لسان ثقيل .

والرجل الذى أوتى هذه المواهب يلحظ الانحراف مهما دق ، فى خلق المرء أو فى خلقه ، أو فى بعض عمله أو حديثه ، أو فى أى شيء من الأشياء على جهة العموم . فسرعان ما يسوى له بخياله صورة مكبرة ، مهما تبعد فى شكلها عن الأصل فهي متصلة به بسبب أو بأسباب . . » (١) .

ويرى البشرى أيضاً أن النكتة نوع من التصوير (الكاريكاتورى) ،
وأنها ترتبط فى وقعها وتأثيرها بما لها من إحاء وبما يحيط بها من ظروف
وملابسات ، فالنكتة « قد تكون بارعة رائعة ، حتى تتهز مجلس السمر هزاً ،
بل لقد ترج البلد كله من الإعجاب والضحك رجاً ، ومع هذا إذا تناولها
المتناول بعد عام أو عامين أو أقل من ذلك أو أكثر لم يجد لها شيئاً ، ذلك بأن
للظروف والأشخاص ، والمناسبات والملابس أثراً قوياً فى براعة النكتة ،
فإذا حال شئ من ذلك وتغير ، ضعف بقدره أثر الكلام ، وإذا كان هذا
بما يلحق الشعر الجيد ، والفن المصنئ المتخير ، فإنه فى باب التظرف والتندر
ظهر وأبين » (١) .

ويختتم البشرى حديثه عن النكتة المصرية فى العصر الحديث قائلاً :

« وإياكم أن تظنوا أن من ذهب لهم فى هذا الباب صيت وذكر ، كانوا
من جماعات المتبطلين أو الجهال ، أو الذين يمرضون بهذا المعروف الفاس ،
أستغفر الله ، فلقد كان فيهم الأديب الكبير ، والكاتب العظيم ، والشاعر
الفحل ، والسرى الملى . وفيهم من برعوا فى أشرف المهن ، وأعوذها
بالكسب . . على أنهم لم يتخذوا هذا ويصطنعوه ، رغبة فى إضحاك الناس ،
بل ليهضاحكوا هم به على الناس ، والويل كل الويل لمن نزل به القدم بين أيدي
هؤلاء ، فإنهم يتطارحونه مهما جل قدره ، كما تتطارح الكرة بصوالج الجبارين
من اللاعبين . . » (٢) .

وهكذا نرى البشرى إلى جانب ميله الطبيعى للفكاهة ، يتتبع بعقله وفكره

(١) المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

أصولها ومتطلباتها وخصائصها وتأثيرها ، كما كان يعرف عن كذب طائفة من
حذاق هذا الفن وفرسانه ويحلل طبائع بعضهم تحليلاً دقيقاً كما فعل مع إمام
العبد ، وحافظ إبراهيم ، وغيرها من ذوى الطبيعة المرحية والميل إلى المزاح
والمعابذة .

ثانياً : هناك تشابه بين بعض موضوعات الأدب الفكاهى عند البشرى
والموضوعات التى أدار الجاحظ حولها معظم فكاهاته ، ويتمثل هذا التشابه
فى الموضوعات التالية :

(١) الحديث عن البخل وتصوير مسالك البخلاء :

وللجاحظ فى هذا الباب سبق مشهور ، كما لمسنا فى تحايلنا لكتاب البخلاء ،
أما البشرى فكانت معالجته لهذا الموضوع محدودة نسبياً ، وإن شارك الجاحظ
فى اهتمامه بتصوير نوازع البخلاء ، وتأثره به واضح غير أن الذى يميز ما كتبه
البشرى أو أذاعه حول هذا الموضوع أنه لم يكرر ما قاله الجاحظ ، وإنما
أضاف إلى النماذج التى ساقها ، وأشار إلى أعماط من البخل ونوعيات من
البخلاء غير تلك التى أبرزها الجاحظ فى « بخلائه » . وهذا نموذج من تصوير
البشرى لنوعية طريقة من البخلاء ، وهى نوعية البخيل الذى يفتقر على أهله
وأبنائه ، فى حين يوسع على نفسه ويتمتع بألوان الطيبات .

يقول البشرى — بعد أن ذكر تأثيره بكتاب البخلاء للجاحظ وإعجابه به
وقراءته له أكثر من مرة — :

« على أننى وقعت على لون من البخل لعلك كفت تراه غريباً ، وأحسبك

الآن تراه غير قريب ؛ فلقد جرت سنة البخلاء على أن يقتروا على أنفسهم وعلى عيالهم معا ، فإذا كان لولد أحدهم شيء من السطوة عليه استخرج منه الأموال فأخرجها له مرغماً مغلوباً ، لا إيثاراً للولد ، وبقي هو في شحه على نفسه ، ارتكاباً لأخف الضررين .

أما النوع الذي وقعت عليه من البخل ، وتحسبه غير مألوفاً ، فلقد كان لى صاحب علمت به السن ، ورزق الضدين (الغنى والعيلة) . فقد اجتمع له من زوجاته الثلاث ما لا يقل عن اثني عشر ولداً . ولا بد له ، رضى أو كره ، من أن يحملهم .

وكان - رحمه الله - رجلاً شديد الحرص عظيم الطمع يجمع الدائق على الدائق ، ويرص المليم على المليم ، ولا يكاد كيسه يتفصد إلا في بناء دار أو شوية ضخمة ، ولكنه كان يخالف سنة البخلاء في خلة واحدة : ذلك بأنهم - كما تعرف - يقترون على أولادهم وعلى أنفسهم معا ، واسكن هذا إنما كان تقديره موجهاً على عياله وحدهم . . . أما نفسه فكان لا يحقن فيها شهوة ، وبخاصة شهوة الطعام ، بل لقد كان يبلغها من هذا غاية مناهيها .

وكان - رحمه الله - إذا سافر ركب القطار في الدرجة الأولى ، أما أولاده فيسحقونهم في (الترسو) أو ما دون (الترسو) لو كان له دون !

وإذا لبس فمن (تفصيل) « ديليا » أو « فسقا » ، أما بنوه فعليه أرخص القماش ، وعلى أمهاتهم (التفصيل) !

وإذا نام افترش الحرير ، وتوسد ريش النعام ، أما البنون ففي (السكليم) متسع للجميع .

أما الطعام ، وما أدراك ما الطعام ! فالخبز أو لا يصفع في البيت كل أسبوع على ألا ينفى من الطحين إلا النخالة ، وسائر للعجين !

وأما الإدام فهذه لآدم أن يزور داره (العامرة) ... فللفداء الكوامخ
(السلطات) أشكلاً وألواناً ، و (لأمّ الفلافل) وأخواتها من الخوان
المقام الكريم !

وأما العشاء ، فله فيه صنع بديع ! يدخل وقت العشاء فإذا صاحبنا قد أعدّ
بعدد الأولاد ملائم ، فإذا اجتمعوا إليه مستشرفين لمشائهم ، قال لهم :
(اللى ياخذ ملهم ما يتمشأش ، واللى يتمشأ ما ياخذش ملهم ! مين اللى ياخذ
ملهم ؟) . ويدفع أحدهم فيقول : (أنا !) وعلى حكم غريز التقليد في العلمان
يسرعون فيتصايحون : (أنا ! أنا ! أنا) ، فيدفع إلى كل واحد منهم ملهمه ،
وكفاه الله مؤونة العشاء ! أعنى عشاء الأطفال !

وبعد ، فلأن ~~الحوارة~~ قصة أخرى : ذلك بأنه زعم للزيات القائم على رأس الشارع
أن لديه حملا يرييه ويحب أن يسمته ويحزل لحمه وشحمه ، وليس يعقد له ذلك
ويسرع فيه أفضل من خلاصة (تصافى) قدر الفول يطعمها في الصباح ،
فيحتفظ له الرجل (بخلاصة) قدر العصر ، ويبعث إليه بها في الصباح الباكر ،
والأولاد بعد نيام ، فيفرغها في قدر كبيرة ، وبماجلها بقدر من الخل ، ويصفف
حولها كسر الخبز التي أفضلها الأولاد في غداء أمهم حتى إذا هتبوا من
النوم ، وأحشاؤهم تنزى من شدة الجوع ، فتواثبوا إلى الطعام ، صاح فيهم :
(اللى عاوز يفظو يجيب المليم !) ، فلا يسمع كلا منهم إلا أن يطرحه إليه ،
مواناة لإلحاح البطن ، وإيثاراً للعافية . فسرعان ما تعود الملاليم إلى عشمها ،
وتمتصم بوكرها ! » .

ثم يستطرد البشرى في وصف مسلك ذلك البخیل الفادر المثال في تناوله
للطعام واصطفائه للألوان المتخيرة منه ، يجيب بعضها عند (اللبان) أو
(الحلواني) أو (الحاني) أو في المنزل وحده بعد أن يغلّق الباب على نفسه ..

والذى يهمنى أن نشير إليه بصدد تلك القصة التى صور فيها البشرى طباع ذلك البخيل تقيمه لمواقفه من أولاده واستقصاؤه لها وتصويرها تصويراً متقناً ، يقطر سخوية ، وبنية طرافة وغرابة ، وعلى الرغم مما نلاحظه فى القصة من مبالغة فى اعتقادنا أنها مبالغة تصويرية قصد بها إلى السخوية ، وتمجيب القراء من أمره ، ويبقى مضمونها بمد ذلك صحيحاً وواقعياً .

ومن التصوير الطريف لنماذج البخلاء ما حكاه البشرى عن رجل آخر يمثل صنفاً مغايراً لما ذكره فى القصة المتقدمة لأنه على العكس منه إذ يقتر على نفسه فقط ، ولا يبالي بما ينفقه أولاده .

وها هو ذا البشرى يصوره بأسلوبه الساخر يقول^(١) :

« كان معروفًا بسعة العلم ، وشدة العقل ، وكان شديد البخل ، قاسياً فى الضنَّ على النفس ، وقد ألحق فى شباب سنه بخدمة الحكومة ویده لاصقة بالتراب من شدة الفقر ، فكان يذخر وظيفته الشهيرة كلها إلا ما يكفى لشراء رغيف (وطعميتين) كل يوم . وأما الثياب فلا يكفى لتغييرها أن تحول ، أو يلحقها النصول ، أو أن تبلى خيوطها ، أو أن تتخرق عروضاها ، فهو لا يتركها بل هى التى تتركه حين يدركها الغناء . . . وعاش كذلك يجمع الدرهم إلى الدرهم ويضم المليم إلى المليم ، حتى اجتمع له فى غاية عمره نحو أربعائة فدان من أجود أطيان الدنيا ، وحوالى عشرة آلاف الجنيه أرضها^(٢) للوارث فقداً وعداً .

وليس شئ من كل هذا بعجيب ، إنما العجيب ما استكشف من خلاله

(١) المختار ج ٢ ص ٢٠٢

(٢) أرضها : هيأها وأعدّها .

فى مؤخرات سقى حىاته . ذاك أنه ظهر . . . أن الرجل لم يكن يحب المال ولا يحفل به ، ولا يعنيه أن يجمع له منه كثير ولا قليل ذاك أن كل هم الرجل وكل خلقه أنه لا يحب المتاع ، ولا يطيق القلب فى النعمة ، فإذا أكل أصاب أيسر ما يمسك الخوباء ، وإذا لبس فى ستر الجسم بالخلق غناء . . . وذلك أن بعض من يحملهم لاحظوا بعد طول ما اعتروا به من ضيق الحياة وشظف العيش فى كنفه ، أنه لا يضمن عليهم بشىء مما يطلبون من الأموال ، بالفة ما بلغت ، على شرط أن يستأثروا بالمتاع بها وحدهم . فلا يشركوه فى طعامهم ولا فى شرابهم ، ولا يفرغوا عليه مثل أرديتهم ، ولا يرقدوه على مثل فرشهم ولا يدخلوا عليه شيئاً من رفاهيتهم ولين عيشهم !

بقوت هناك مشكلة . . . وهى أنهم يحبون أن يستصحبوا بالكهرباء ، وهو لا يطيق أن يطلق النظر على ضوءها ؛ فكيف الحياة فى هذا الإشكال ؟ لقد ظلت المشادة دهرأ بين الطرفين ، حتى عرض هو حلاً معقولاً : ذلك أن يستأجر لهم دارأ فى حى المنيرة ذات غرف وأبهاء ، ليزيدوها بما شاءوا من قريات الكهرباء . على أن يدعوه فى مثواه بهير المش ، يستصبح بالزيت ويفترش الشمس ! » .

ويعلق البشرى على قصة ذلك البخيل مؤكداً أن المؤلفين فى علم الأخلاق فى حاجة إلى أن يراجعوا كتبهم لاستقصاء مثل هذه الأحوال ، وضبط الكلام فيما تدل عليه من الفرائز والخلل .

وهكذا نرى البشرى يعالج ظاهرة البخل ، ويصور طبائع البخل ويرسم لهم بقلمه الساخر صورأ طريفة ، ويقع فى أنفء تتبعه لطبائعهم على أنماط لم يقع عليها الجاحظ فيما عرفه من بخلاء عصره ، هذا فضلاً عن اشتراكه معه فى بعض الماذج الأخرى ، كنموذج البخيل الذى أورد قصته فى المختار

تحت عنوان « اقتصاد سياسى » وهو يذكرنا بأصحاب المينة الذين وصفهم الجاحظ في قصة أبو سعيد المدنى .

(ب) التطفيل والتفيليون :

وهو أيضاً من الموضوعات التى اشترك فيها البشرى والجاحظ . وقد نال هذا الموضوع اهتمام البشرى وكأنه كان معنياً بالتأريخ لهذه الظاهرة وتتبع أخبار هذه الطائفة قديماً وحديثاً فتجده فى المختار يتحدث عن تأريخ التطفيل قديماً عند العرب ، ثم يخصص مقالا آخر للتطفيل والتفيليين فى الجليل الماضى ، وأخيراً يتحدث عن التطفيل عند معاصريه .

ومن أمتع ماسطره البشرى فى هذا الباب ما صور به شخصية الشيخ حسن غندير ، يقول عنه البشرى^(١) :

« لقد كان الشيخ غندير من مباهج مصر ، وآية يتيه بها ذلك العصر على كل عصر . نعم ، لقد كان المفرد العلم فى (فن) التطفيل ، وهيئات وجود الزمان بمثله (فإن الزمان بمثله لمخيل) !

وبعد أن يسرد البشرى على قرائه وصفاً دقيقاً للشيخ غندير فى شكله العام وثأنقه فى ملبسه واعتنائه بيزته ينتقل للحديث عن ملامح شخصيته وطابع طفايته فيقول :

« وبعد ، فلقد كان إلى هذا التأنق والتجمل ، عذب الروح ، فسكه الحديث حسن الحاضرة ، حلو المفادمة ، حاضر النكتة ، عالماً بأخبار الناس ، محيطاً

(١) المختار ج ٢ ص ١٥٥ وما بعدها .

بصفاتهم وأسبابهم وشمائلهم ، يحدثك عن أجوادهم وبخلاتهم ومن يهش
للأضياف منهم ، ويتبسط على طعامه معهم . ومن يفلق دون الضيف بابيه ،
ويقيم عليه إذا حضر القداء أحراسه وحمجابه .

... وإنه ليحدث عن عادة كل عين من أعيان البلد في طعامه وشرابه ،
ويعرف ما يؤثر من ألوان الطعام وما يكره . . . وهو إذ يحدثك في هذا ترى
شدقه دائم الاختلاج ، وشفتيه لا تفتران عن التحلب ، شأن من ألح عليه
الجوع ، وهو يرى أشهى الطعام بين يديه ، ولكن لا سبيل له ألبته إليه !

ولقد يحول الشيخ غندر في غير حديث الطعام ، فيبدع في حديثه ويلون
في سمره ، ويقفن في إيراد المكتبة كلما دعت مناسبات الكلام . . .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذا الرجل ، ما يزال إنسانا وديما أنيس المحضر ،
ظريف المجلس ، حتى يحضر الطعام . فإذا حضر جن جنونه ، وثار ثأره وخيفت
بوادره ، وتغير خلقه ، وتشكرت صورته ، وأمسى منظره مفرعاً مرعباً . ولو قد
رأبته وهو يفرى الفرى ويلتهم الياابس والطرى ، نخلت أن كل شيء فيه قد
استحال فما : فهو يأكل بقمه ويأكل بعيفه ، ويأكل بأنفه ، لا تراه يلوك لقمة
أو يحرك للمضغ ضرساً . بل إنه ليكورها ثم يقذف بها في حلقه ، فتسكاد تسمع
رديتها في قرارة بطنه . فإذا فرغ من شأنه ، وما بيصده أن يفرغ لبت
يتلمظ ساعة . ثم ارتد إنسانا وادعاً ظريفاً يلون السمر ، ويقفن الحديث
تغنيفاً (١) .

(١) المختار ج ٢ ص ١٥٥ : ١٥٧ (بتصرف واختصار) .
(١١ - أدب الحكامة عند الملاحظ)

ولا يخفى على القارىء ما بين هذه الفقرة الأخيرة التي صور البشرى فيها
نهم الشيخ غندر وما يعتريه إذا حضر الطعام ، وبين تصوير الجاحظ أشده
على الأسوارى^(١) الذى وصفه بأنه كان إذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه
وسكر وسدر ... وعصب ولم يسمع ولم يبصر . . إلخ .

(ج) المسكدون (الشحاذون) :

وم الذين تحدث عنهم الجاحظ عندما عرض قصة خالويه المسكدى ، وقد
أشرنا هناك إلى أن حديث الجاحظ عن هذه الطائفة ووصفه لها يتجاوز مجرد
كونهم جماعة من المساكين الذين يتجدون الناس ، ويطلبون ما بأيديهم ،
بل إنهم فى نظر الجاحظ عصابة من الشطار كل همهم استنزاع المال من أيدي
الناس بشتى الحيل وصنوف الخدع ، ولعل البشرى كان يقصد إلى هذه النوعية
فى حديثه عن الشحاذين ، فهو لم يتناول الموضوع من زاوية إنسانية تعالج
الظاهرة وتدعو المجتمع إلى علاجها بل اكتفى بتصوير إلحاح الشحاذين
وإقلاقهم للناس فى جوف الليل أحيانا وفى الصباح الباكر أحيانا أخرى ،
وكان البشرى لم يكن يعنيه فى تصويره للشحاذين سوى التذليل على صفاقة
بعضهم واحترافهم للتسول وكونهم وصمة اجتماعية ينبغي التخلص من عبئها .

وللبشرى حديث عنهم فى المختار تحت عنوان « الشحاذون » صور فيه إلحاحهم
وإقلاقهم للناس بأسلوب طريف يقول فيه :

« لا أعرف أن الدنيا تجمع طائفة من الناس أشد أثره ولا أورم أنوفا
ولا أعظم غرورا ، ولا أبلغ تنافها على صرف الأيام من سادتنا الشحاذين

(١) البخلاء ص ٧٩

المصريين ! وأقول سادتفا الشحاذين لا على حكم القأدب ولا على جهة الاتهم... بل لأنه الحق الذى لا شك فيه . فهم سادتفا حقا . ونحن مواليهم حقا . فإن كان ما زال يختلج فى نفسك الريب فاسمع هذه القصة :

ثم سرد البشرى قصته مع الشحاذين وإزعاجهم له خصوصا فى شهر رمضان الذى كان من دأبه أن يحبى لياليه بالسهر إلى السحور ، ثم يهب من غده مبكراً لیسافر إلى الزقازيق حيث كان يعمل قاضيا هناك . وفى صبيحة يوم شديد البرد كثير المطر يعالج السير فيه بصعوبة ليصل إلى محطة الترام فيفاجأ بمن يجذبه من كنفه ويصك سمه بصوته التكثير قائلا : (فطور العواجز عليك يارب !... من فطور صايم له أجر دايـم ، هنيالك يا فاعل الخير) ثم يسرد البشرى حواراً غاضبا دار بينه وبين ذلك الشحاذ الثقيل انتهى بأن سمع منه البشرى ما يكره من شتم وسب . ثم ينتقل البشرى فيذكر قصة طريفة وقعت لبعض أصدقائه يقول :

« وما يذكر فى هذا الباب أن صديقنا المرحوم رفيق بك العظيم كاتب سـ علت به السن ، وأخت عليه العمل ، وهو من يوم نشأته مضعوف هزيل ، مرهف الأعصاب . وقد امتحن فوق هذا كله بالأرق . وكان فى مؤخرات أيامه يسكن (عمارة البابل) من أحياء السيدة زينب . ويدخل فى فراشه فى الساعة التاسعة ، فيظل يقطاول إلى النوم ويسد رجه بألوان الشكاف والتصنع إلى ما بعد الساعة الثانية صباحا .

وبينا هو ذات ليلة يسد رج النوم ، والأرق يدافعه حتى دخل فى ذلك البرزخ الممدود بين النوم واليقظة (السنة) ، تلك الرقعة التى تتلوى لك فيها لأحلام . وتعى فى الوقت نفسه ما يدور حولك من الكلام . بيناه على تلك

الحال ينتظر الدخول في النوم القام ، إذا هاتف يهتف من جانب الطريق بصوت كأنه قصف الهد ، أو زمزمة الرعد : (رغيف عيش وصحن طبيخ لله !) وإذا الرجل يهب من سنته على أظافره ، وإذا الحدث يجعله عن اتخاذ حذائه ، فيجتمز^(١) حافيا على السلم ، حتى إذا خرج إلى الطريق أهاب (بمولانا الشحاذ) : « يخرب بيتك ! مين اللي بيصحح دولت الساعة اتنين بعد نص الليل ويسخن لك الطبيخ ؟ قول إيدوني رغيف عيش وحتة جبنة ، أو شوية زيتون ، أو حتة صربة يبقى شيء معقول ! » وتركه وصعد ليتصيد نومه من جديد !

ثالثا : بعد أدب البشرى من أصدق صور الأدب الحديث تمثيلا للبيئة المصرية ووصفا لظواهر الحياة بها من جوانبها المتعددة . فالبشرى كما عبر الدكتور طه حسين في تقديمه لسكتاب « قطوف » : من أشد كتابا المعاصرين عكوبا على حياتنا المصرية ، وعلى حياة القاهرة خاصة ، وعلى حياة الطبقة الوسطى من أهل القاهرة بنوع أخص ، وهو أشد كتابنا نفوذاً إلى دقائق هذه الحياة ومراثرها ، وأشدهم تمثيلا لخلاصتها ، قد خالطت نفسه ، ومازجت دمه وانطلقت على لسانه حين كان يتحدث ، وجرت مع قلبه حين كان يكتب .

ونستطيع أن نؤكد أن البشرى يشارك الجاحظ في هذه الخاصية فكلما الرجلين معنى بتسجيل ما تضطرب به حيوات الناس في عصره دقيقة وجليلها ، بحيث نطالع في أدب كل منهما صوراً دقيقة للحياة من مختلف نواحيها .

ولعلنا لمسنا في حديث البشرى عن ميزات الجاحظ ، وخصائص أدبه والذي نقلنا عنه آنفاً - أنه يقدر في شيخ الأدباء تصويره لمصره ، وكشفه لسوءات مجتمعه بصورة لا يطاوله فيها كاتب غيره . وكأننى بالبشرى قد طمح إلى تلك الرتبة ، ووضع نصب عينيه ذلك الهدف فجرى في ذلك الميدان أشواطاً ، وحقق فيه سبقاً متميزاً .

ونجدر الإشارة إلى أن كتابات البشرى التى تصور الظواهر الاجتماعية فى عصره تسكتسب أهمية خاصة بحسبانها قد اضطلمت بتسجيل جوانب دقيقة فى الحياة المصرية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وقبل حدوث تلك الانعطافة الحضارية التى شهدتها البلاد ، بعد أن ازداد اختلاط أهلها بالأوربيين ، وفتنوا بحضارتهم ، وأغرموا بتقليدهم وترتب على ذلك اختفاء بعض المواد التى كانت موجودة من قبل ، ولا ريب فى أنها كانت مرحلة دقيقة ، شهدت تمازجاً بين القديم والجديد ، وخلقت وراءها رصيداً متراكماً من المتناقضات .

ومن أهم ما يميز كتابات البشرى فى هذا الجانب أنه حرص على تسجيل كثير من تلك الظواهر التى كان مصيرها الفناء ، والأخرى التى استحدثت أو التى كتبت لها البقاء . فترى البشرى وهو يعرض لموضوع من الموضوعات ، أو يصور ظاهرة من الظواهر لا يفتأ يعقد المقارنات بين ما هو عليه فى عصره وما كانت عليه فى الجيل الماضى . فعل ذلك فى حديثه عن عادات الناس فى الأعراس ، كما فعله فى حديثه عن « التطفيل والطفيليين فى الجيل الماضى »^(١) وأيضاً فى « أدب العراك فى الجيل الماضى »^(٢) وغير ذلك من الموضوعات .

(١) المختار ج ٢ ص ١٤٩

(٢) المرجع السابق ص ١٣١

ولم ينت البشري في تحليله لظواهر الحياة في مصر على عهد أن يتناول بالغمز والسخرية طائفة من العادات المردولة ، والأخلاق الذميمة ، كما لم ينب عن فهمه أن يوجه نقداته اللاذعة ، وتهكمه المرة إلى دعاة التفرنج الذين يسرفون في تقايد الغربيين ، ويبالغون في التشبه بهم ، ويعدون ذلك مناطاً للفخر ، ومؤشراً على التقدم والعصرية .

وهذا جانب من مقال للبشرى بعنوان « من خلق الله »^(١) يعيب فيه على نموذج من الشباب المولع بتقليد (أبناء الذوات) يقول فيه :

« يظهر أن عند بعض الناس كثيراً أو قليلاً من الشك في أنهم موجودون ، أو على الأقل لمهم يشكون في أنهم من ضمن الناس ، فهم دائبون جاهدون كل يوم بل كل ساعة في جمع الأدلة على إثبات وجودهم ، أو على إثبات أنهم ناس من الناس . ومن هؤلاء للمساكين شاب حدرت له الظروف مالا جليلاً يهيء له العيش في أخفض عيش ، والتقلب فيما شاء من النعم » .

ويأخذ البشرى بعد ذلك في تصوير الشاب وإبراز ملامحه وأسلوبه في ملبسه وعنايته بهفداه و « شارب » و « طربوشه » و « سيجاره » .

ثم يذكر أنه سأل عن قصته واستقصى أخباره فاستجاب له أنه « رجل شغف بأن يكون في أولاد (الذوات) فهو يأخذ إخدم ويتشبه بهم في شكلهم ودلهم ، وفي مشيتهم ، وطعامهم وشرابهم ولعومهم وعيبتهم ، وسائر أطوارهم . فهو يسمع أن ابن فلان باشا (يفصل) الثياب عند (ديليا) فيطلب (ديليا) ويسأله أن (يفصل) له (بدلة) كالتي فصلها أخيراً لفلان . ثم يسمع أن الأمير فلاناً

(يفصل) عند (سيفاد) ، فيمضي من فوره إلى (سيفاد) ويسأله ما سأل ديليا
أمس . ثم يرى في إصبع فلان بك خاتماً من الزمرد ، فلا يزال يتحرى ويستخبر
حتى يهتدى إلى الجوهري الذي باعه فيشترى مثله . ويرى فلاناً بك يدخن
السيجار ، فيدور ويبحث ويستقصي حتى يهتدى إلى أغلى السيجار ، فلا يفارق
بمدها فيه أبداً ، وما هو (مخرمان) ، ولا هو بمن يتذوقون الدخان !

وينتهي البشري تصويره لسلوك ذلك الرجل المخدوع بالتعبير الساخر عن
مصيره المحزن ونهايته الطبيعية بقول :

« بعد كتابة هذا الكلام . . انتهى إلى أن الرجل مع الأسف ، قد لحقه
الفتنة ، وحلت به الفاقة ، وركبته الديون ، فباع السيارة وكل ما أحوز من
كرام الجواهر ونفيس الآثار . . . وسكن في الخارطة الجديدة بعد الزمالة ،
ولم يحتفظ من آثار العز إلا سيجار واحد (يركبه) في فمه لينحوس به في ديو
الطين ، بعد التخطير في شارع المهاج وشارع عماد الدين ! » .

وللبشري مقال طريف في موضوع عانى منه المخلصون من العاملين في الوظائف
الحكومية وما زالوا يعانون منه إلى أيامنا هذه وهو حافل بالسخرية والتلميح ،
وهذا الموضوع يتمثل في جماعة الوصوليين الذين يتقنون صناعة التزلف إلى
الرؤساء ، والتفنن لخطى رقاب الآخرين والظفر بالمراتب الوظيفية العليا دونهم ،
يقول البشري تحت عنوان « فن الوظيفة »^(١) :

« تدور في هذه الأيام كلمة (الفن) ، تنفض نفثاً على كل من له عرق
في تصوير أو نحت أو غناء أو تمثيل . إذ هناك (فن) أدق وأبرع وأجدي

(١) المختار ج ٢ ص ٢٥٠

على (الفنان) وأنفع . ومع هذا لم يعرض له النقدة ، ولا اعتفوا به في مقالاتهم .
وإن شئت أن تعرفه ، فهو « فن الوظيفة » .

و « فن الوظيفة » هذا - شرح الله صدرك ، وأطال عمرك ، ورفع في المقاصب قدرك - من واسع الأطراف ، رحب الأكناف ، مؤصل الأصول ، مفصل الفصول ، مقعد القواعد ، مبسط الأمثلة والشواهد ، لا يحذقه القتي إلا بعد الجهد وشدة المطاولة ، وسهر الليالي في القف-كبر والتدبير ، وتمرين الأعضاء في كيفية القعود والقيام ، والسكوت والكلام ، والدخول والخروج ، والمهبوط والعروج ، والتشيع والاستقبال ، والخنوع والاستقبال ، والانتقباض والتبسيط ، والرضا والتسخط ، وإرهاق الأنف حتى يشم الريح على أميال ، ويدرك مدى تحول الجو من حال إلى حال .

وهذا (الفن) الجليل لا يكفي في تحصيله والتميز فيه كل هذا بل لا بد من التهيؤ والاستعداد ، وأن يكون للمرء طبيعة وموهبة ، شأن سائر الفنون الجليلة !

ومن أول مزايا هذا (الفن) الجليل تحليد (الوظيفة) للفنان على الزمان ، ولو عصفت أحداث السياسة بلداته جميعا ! ومنها الوثوب في الدرجات مثنى وثلاث ورباع ، وخماس وستاس وسباع .

ولم يأت لأعرف طائفة من هؤلاء (الفنانين) مهد لهم (الفن) الدرج كله ، فتناولوه وثباً في كل وزارات : عدلى ، وثروت ، ونسيم ، وسعد . . . حتى بلغوا القفة بدقة الفن وحده ، ناعمين بثقة الجميع ، ولا إيمان لهم بواحد من الجميع !

ألا حيا الله هذه الهمم ، وحيا معها تلك الذمم ! ! .

والقال كما نرى آية من آيات التصوير "ساخر في أدب البشرى ، وهو يطلعنا على حذقه لهذا اللون من الكتابة ، وبراعته في تلوين الصور الساخرة واستقصاء المعنى من كافة جوانبه وتقابله على شتى وجوهه ، ولا أظن أن أديباً مصرياً استطاع أن يبلغ في النهج من تلك النوعية من الوصاوين ما بلغه البشرى في هذه المقالة .

ويحسن بنا أن نلم في هذا المقام بجانب من اهتمامات البشرى الأدبية التي ساق آراءه حولها بأسلوب ساخر ومنها مقال بعنوان « شعراؤنا والندابات » يعد من أبرع ما كتب في الزاوية على الشعراء المتكافئين الذين يهتبلون المناسبات ليقولوا فيها الشعر ، فإن لم توجد مناسبة اختلقوها اختلاقاً ، إرضاء لشهوتهم في التصايح بالشعر ، وقرع آذان الجمهور بالقريض ، دون أن يكون لما يقولونه أساس من حس شعري أو موقف نفسي ، وكأن الأمر لا يدور في نظر أولئك الأدعياء سوى أن يحشد الناس ليجد المتشاعرون فرصتهم في نثر عباراتهم اللطانة ، وأقوالهم الجوفاء .

يقول البشرى في المقال المشار إليه :

« الحمد لله لقد أصبح عندنا « طقم » شعراء لا يقل استعداداً ولا سرعة إجابة في المهمات عن « موسيقى حسب الله » ، تمشى في « الزنف » كما تمشى في « الجنائز » ، وتعزف دائماً - على حسب الأحوال - بالمطرب والحزن من الألحان !

أمسى « طقم » الشعراء من ضروريات الحياة عندنا ، يخف للدعوة ، وينشط للشعر هناء لكل معرس ، وترحيباً بكل قادم ، وتكريماً لكل مولع بالظهور ، ورناء لكل ميت . ولا يبعد أن تقسح غداً هذه المهنة فيحل شعراؤنا محل

جماعة « شوبش » في « صبيحة » العرس . و « صلوا عليه سعيد » بين يدي
موكب « المطاهر » !

... على أنه سيأبى ، وقد يكون قريباً جداً ، ذلك الوقت الذى يكلف فيه
صاحب « المهم » الفراش باحضار « طقم » شعراء ، كما يستحضر عادة « طقم »
الموسيقى ... ثم ان كثير من لا شأن لهم ولا جليل خطر فى هذه الحياة . بل
لقد كان بعضهم من تعف عنهم كل فضيلة ، وتكبر عليهم أحقر المزيا ، ولم تتعلق
من أهليهم ولا أصدقائهم بأن يفقدوا لهم يوماً للرفاء . ومع ذلك يادر
طقم الشعراء أنفسهم فأعلقوا بلسانهم الدعوة إلى يوم الأربعين لاستباح
مرأى فلان وفلان . وفي بعض الأحيان اضطلع هؤلاء « الشعراء » بما تقتضيه
« الحفلة » من النفقات ، حتى يسمموا الناس أشعارهم ، ويقاروا في إعلان
بلاغتهم ! » .

وفي موضع آخر يعرض البشرى للحديث عن النقد الأدبى فى العصر الحديث
فيلاحظ عليه توزيع المشتغلين به شيعا وأحزابا وإسرافهم فى التحسين والتقبيح
بلا ترو ولا تميز يقول البشرى تحت عنوان « فوضى النقد »^(١) :

« ... الواقع أن النقد عندنا أصبح فوضى ما تفتأ تستفحل وتستحصد حتى
بات يخشى أن يضل الناشئين عن كل أدب صحيح ، وإذا لم يأت بالفعل على كل
أدب صحيح . وإننى لأتقدم إلى تقرير هذا الواقع المروتيبيته ، لأننى امرؤ
لا أنتمى والحمد لله لشيمة ، ولا أنصل بحزب من هذه الأحزاب الأدبية القائمة
فى البلاد الآن .

(١) المختار ج ١ ص ٨٣ وما بعدها .

وعلة هذا^(١) في تقديري ، تعود إلى السُّمار الذي لحق كثيراً من متأدبي هذا العصر إلى طلب الشهرة ونباهة الذكر من أخصر طوبق . وليس في هذه الطرق أخصر ولا بأسر من التهويش وصب المديح جزافاً ، وهيل الثناء وإصفاء النعموت ، وإفراغ الألقاب بغير حساب !

والأديب لا يستطيع أن يضطلع لنفسه بهذا وحده ، مهما يجد ويسرف في انتحال الأسماء والألقاب . . بل لابد له في بلوغ الشأو وإدراك الغاية من الاستعانة بغيره على مهمه .

وكلما كثر هؤلاء الأنصار والأعوان ، هان بالضرورة إحراز الشهرة في أقرب آن . وهؤلاء الأعوان لا ينهضون لهذه الخدمة بغير ثمن عيني ، أى بدون أن يبادلهم صاحبنا المديح ويقارضهم الثناء . ومن هنا كان للأدب عندنا هذه الأيام أحزاب وشيع أشبه ما تكون بالشركات المسالية يساهم فيها الجميع ، فتعود جدواها على الجميع .

هذا شاعر خالد ! وهذه شاعرية جبارة ! وهذا المعنى من وحى السماء ! وهذا فلان يؤدي رسالة الأدب إلى العالم . .

مهلاً وريداً أيها الناس ، فلقد والله ابتدأتم النعموت وأرخصتم الألقاب ، ومالها لا ترخص ولا يلحقها أشد الوكس وقد أصبحت لا تدل في أكثر الأحيان إلا على كل تافه وكل هزيل !

وبعد فلقد تجود بعض القرائح بالشعر الخالد ، ولقد تصل الشهرة إلى مرتبة الجبروت . ولقد يكون فينا اليوم ، ولقد يفجئ فينا غدا من يستحق

(١) الإشارة والتعليل هنا لفوضى النقد .

بنفوغه وارتفاع مواهبه شيئا من هذه النفوس والألقاب ، فكيف ندعوه ؟
وبماذا ندل على موضعه ؟ وما الذى نميزه به من سائر المشتغلين بالأدب ؟ .

وهكذا تجول نظرات البشرى الثاقبة فى كل زاوية من زوايا الحياة
فى عصره وهكذا يقدو قلمه الساخر مبصرا لاستئصال الأدواء التى يعانى منها
المجتمع سواء فى أنماط الناس السلوكية أم فى قضاياهم الفكرية وأنشطتهم
الأدبية والفنية .

رابعا : لجأ البشرى فى أدبه الفكاهى ، وتصويره الساخر إلى استخدام
الألفاظ العامية والمبارات الدارجة ، لما لهذه وتلك من إيحاءات خاصة ،
يستطيع أن يبلغ عن طريقها غاياته فى إشاعة المرح ، وإضفاء الطابع الساخر على
كتاباتهِ وتعليقاتهِ .

والبشرى فى هذا الجانب متأثر أيضا بالجاحظ مقتد به يقول فى حديث له عن
النسكية المصرية فى العصر الحديث (١) :

« . . . وهنا أرجو أن ترخصوا لى فى أن أتكلم ما دعت الحاجة بالعامية
الخالصة ، لأن النسكية إذا سمكت فى العربية الخالصة فقد ينضب ماؤها ويحول
بهاؤها . وإننى لأذكر أننى قرأت للإمام الجاحظ شيئا فى هذا المعنى . وأين
نحن من إمام البيان غير مدافع . وأين بياننا من بيانه ، وأين تجويد أقلامنا
من عفوانه ؟ » .

وهناك ملامح أسلوبية مشتركة بين البشرى والجاحظ من أبرزها وأظهرها :
إيثار اللغة الواضحة ، والألفاظ الدالة ، والتأنق في الصياغة ، واصطناع
الأسلوب الموقّع ، الذى يحفل بالرنين الموسيقى عن طريق الموازنة بين الجمل ،
والإكثار من إيراد الألفاظ المترادفة ، والكلمات المتقابلة واستعجاب السجع
الطريف ، ومن أمثلة ذلك فى أدب البشرى التصويرى قوله وهو يصف سلوك
« الطبايب » وهو الطفيل : و « الطبايب » رقاك الله شر البطنة ، لا يقف بالوجهة
على المسائدة ، بل إنه ما يكاد يرفع يده عن غاية الطعام ، حتى يهرول فى التماس
مائدة أخرى فى العرس نفسه ، أو فى عرس غيره . . . حتى لقد يوالى بين ست
وجبات أو سبع فى ليلة واحدة . . . كأن معدته نحتت من حجر أو قدت من
حديد ، وحق فيها « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » ١٩ .
ولعل القارئ المتأمل قد اتضح له من هذا النص ومن النصوص الأخرى
التي سقتها آنفاً مدى التقارب بين البشرى والجاحظ سواء فى المنزع العام
وطريقة التفكير ، أم فى أسلوب المعالجة وطريقة الصياغة .

وكأن جيل الرواد فى مطلع نهضةنا الأدبية الحديثة أبى إلا أن يطاول
أعلام المتقدمين فى شتى المجالات ، فظهر من الشعراء : البارودى وشوق وحافظ
لعميدوا إلى الأذهان ذكريات : أبى تمام وأبى نواس والمتنبى والبحتري
وابن زيدون . . الخ . كما أنتم ذلك الجيل عبد العزيز البشرى ليجدد ذكرى
الجاحظ . . .

وهكذا بلغت المسيرة الفاهضة غايتها ، وحقق الطامحون إلى المجد الأدبى
مآثر دفعت بهم إلى مصاف الأعلام المتقدمين ، وكتبت لهم خلود الذكر
فى سجل النابهين .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

- (١) البخلاء : الجاحظ - تحقيق طه الحاجري - طبعة دار المعارف السادسة
- (٢) البخلاء : الجاحظ - شرح أحمد العوامري وعلى الجارم - طبعة وزارة المعارف سنة ١٩٣٩ م
- (٣) البيان والتبيين : الجاحظ - تحقيق هارون - طبعة مكتبة الخانجي الرابعة
- (٤) الحيوان : الجاحظ - تحقيق هارون - طبعة البابي الحلبي الثانية
- (٥) رسائل الجاحظ : الجاحظ - تحقيق هارون - طبعة مكتبة الخانجي
- (٦) رسالة التربيع والتدوير : الجاحظ - تحقيق فوزى عطوى - طبعة الشركة اللبنانية للكتاب
- (٧) المختار : عبد العزيز البشري - طبعة دار المعارف الرابعة

ثانيا : المراجع :

- (٨) أدب البشرى : د. جمال الدين الرمادى - طبعة مطبعة الخانجي بالقاهرة
- (٩) أدب الجاحظ : حسن السندوبى - الطبعة الأولى ١٩٣١ م
- (١٠) أدب المعتزلة : د. عبد الحكيم بليغ - طبعة دار نهضة مصر الثالثة
- (١١) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية : د. مصطفى الشكعة - طبعة مكتبة الأنجلو ١٩٦٨ م
- (١٢) أخبار الحقي والمفتلين : ابن الجوزى - طبعة دار الآفاق بيروت

- (١٣) البرسان والعرجان والعميان والحولان : الجاحظ - تحقيق د. محمد مرسى الخولى - طبعة دار الاعتصام ١٩٧٢ م
- (١٤) الجاحظ - حياته وآثاره : د. طه الحاجرى - طبعة دار المعارف الثالثة
- (١٥) الجاحظ معلم العقل والأدب : شفيق جبرى - القاهرة ١٩٤٨ م
- (١٦) الجاحظ : حنا الفاخورى - دار المعارف بيروت ١٩٥٩ م
- (١٧) الجاحظ والحاضرة العباسية : د. ودیمة طه النجم - مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٥ م
- (١٨) سخرية الجاحظ من بخلائه : د. محمد بركات أبو على - مكتبة الأقصى عمان ١٩٧٤ م
- (١٩) سيكلوجية الفكاهة والضحك : د. فؤاد زكريا - مكتبة مصر بالفيحالة
- (٢٠) ضحى الإسلام : أحمد أمين - طبعة مكتبة النهضة الثامنة
- (٢١) الظرفاء والشحاذون فى بغداد وباريس : صلاح الدين المنجد - طبعة مطبعة الرسالة بالقاهرة
- (٢٢) عبد العزيز البشرى : د. جمال الدين الرمادى - سلسلة أعلام العرب - وزارة الثقافة والإرشاد القومى
- (٢٣) الفكاهة فى الأدب : د. أحمد محمد الحوفى - طبعة مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦ م
- (٢٤) مع بخلاء الجاحظ : فاروق سعد - طبعة دار الآفاق بيروت ١٩٨٠ م

ثالثا : الدوريات :

- (٢٥) مجلة الرسالة : سنة ١٩٣٧ م
- (٢٦) مجلة المعرفة : سنة ١٩٣٢ م
- (٢٧) مجلة الهلال : عدد أغسطس ١٩٦٦ م

رابعاً : بحوث غير مطبوعة :

(٢٨) الجاحظ وأثره في النقد الأدبي وفي النثر الفني خلال النصف الأول من
القرن العشرين : د. عبد الفتاح علي عفيفي - رسالة دكتوراه بمكتبة
كلية اللغة العربية بالمنصورة

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
— مقدمة	٥
— من الجاحظ ؟	٩

الفصل الأول

الجاحظ وفلسفة الفكاهة ١١ — ٢٢

— حاجة الإنسان إلى الضحك	١٢
— الاعتدال في الضحك	١٤
— إمتاع القارئ بالمضحك والفكاهات	١٦
— عدوى الضحك	١٩

الفصل الثاني

دلالات الفكاهة عند الجاحظ ٢٣ — ٣١

— مذهبية	٢٤
— سياسية	٢٧
— اجتماعية	٢٨
— تاريخية	٣٥
— أدبية	٣١

رقم الصفحة

الموضوع

الفصل الثالث

موضوعات الفكاهة عند الجاحظ ٣٢ — ٩٤

- القصص والوعاظ ٣٣
- الأعراب ٣٩
- الحق والبهل والأدعياء ٤٣
- المعلمون ٤٧
- البخلاء ٥١
- ملامح الإطار الفكاهي لكتاب البخلاء ٦٨
- الاحتجاجات المضحكة ٦٨
- غرابة الأخبار وطرافتها ٧٤
- المغالطات المرحية ٨٠
- فكاهات شتى ٨٢
- الفكاهات العسارية ٩٠

الفصل الرابع

أخصائص الفنية لأدب الفكاهة عند الجاحظ ٩٥ — ١٤٦

- براعة الوصف ودقة التصوير ٩٧
- السخرية والتهكم ١٠٧
- الترييح والتدوير ١١٢
- واتمية اللغة ١١٩
- الأقصوصة الفكاهية ١٣٤

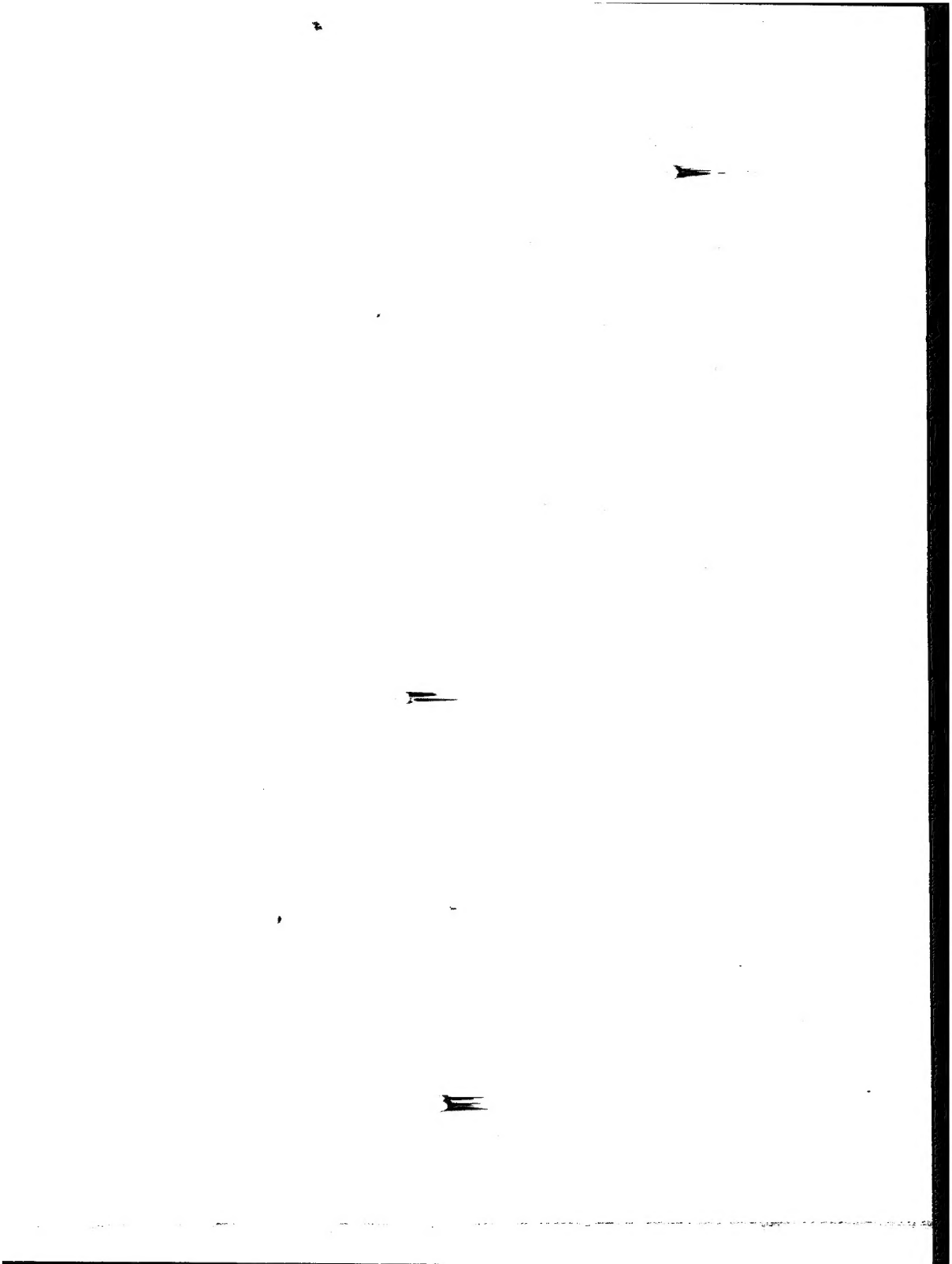
رقم الصفحة

الموضوع

الفصل الخامس

الأدب الفكاهى عند البشرى وأثر الجاحظ فيه ١٤٧ - ١٧٣

- جوانب التقاء البشرى بالجاحظ ١٥٢
- الاهتمام بالفكاهة ١٥٢
- تشابه الموضوعات ١٥٥
- أدب البشرى وتمثيله للبيئة المعربية ١٦٤
- أسلوب الأدب الفكاهى والساخِر عند البشرى ١٧٢
- المصادر والمراجع ١٧٤



صواب الخطأ

هذا تصويب لبعض الأخطاء الواردة في الكتاب ، واستميج القارىء
العذر إذا وجدت أخطاء أخرى جاءت سهواً أو لم أفطن إليها .

ص	س	الصواب
٥	٣	سبب
٦	الأخير	يميزه
٢٤	١	نموذجا
٢٥	٣ قبل الأخير	تفتيب
٢٦	١٢	أت عثمان
٢٨	٣	الحجاج
٣١	٧ قبل الأخير	والاكتمال
٣٣	١ هامش	من الأهراب
٣٥	٧	يمرن
٤٠	٢	لا يحسنان
٤٥	٤ هامش	تندر سائله
٤٦	١٢	الروايات
٥٦	٥ هامش	يحملونه
٥٩	١	وتفقد
٦١	الأخير	فليبلغ
٧٠	٦	بأسلوبه
٧٢	٩	ثم جعله
٧٨	١٤	والطرافه
٨١	٧	الأشهر

الموضوع	ص	س
أشهر	٨١	٩
وطبيعته	٨٣	١
٢ قبل الأخير خلال	٩٣	
في فكاها	١٠١	١١
القطعة	١٠٢	٢
غريب	١٥٦	١
مألوف	١٥٦	٥
وتصورها	١٥٨	٢



رقم الإيداع ٢٣٠٧ / ١٩٨٢